الجبل والسهل

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كوردستان العراق
ص.ب رقم: ١
www.araspublisher.com

محى الدين زەنگەنە

الجبل والسهل

قصص قصيرة

اسم الكتاب: الجبل والسهل- قصص قصيرة
كتبها: محى الدين زەنگەنە
من منشورات ئاراس رقم: ١٢٤
التصحيح والتصميم: عبدالرزاق عبدالله
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: نسار عبدالله+ كەڤى محفوظ+ نادية عزيز
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
عدد النسخ: ١٠٠٠
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠٢
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٢/٦٤

نثارات حلم تبحث عن حالم

عثرت على نفسي، بعد طول ضياع ولهاث وإختناق، فوق تلّة، مسكوناً برعب شديد، أجهل باعثه. وعبثاً أحاول، عاصراً ذهني أن أجد بين تلافيفه سبباً يبرره. أو، في الأقل، يحمل إليّ بعض القناعة والإطمئنان.

صحيح أن التلة عالية وكبيرة، ويخيّل إليّ انها تعلو وتكبر رويداً رويداً. حتى لتكاد تستحيل جبلاً شاهقاً موحشاً، مفرغاً من الإنس والجن، يفترش فضاءً هلامياً مرشوشاً بالضباب أو بما يتراءى لي كالضباب. ضباب كثيف معتم، تلتمع خلال نسيجه الدبق اللاصق بالجلد، نقاط مضيئة، تبرق بين الفينة والفينة مثل شموس نارية صغيرة الحجم. متناهية في الصغر كأنها جمرات نيران تتوقد، ترسل شواظاً، تقتحم عينيّ كلما فتحتهما، فأتجنّب فتحهما ماأستطيع.

بيد أن "ماأستطيع" في إطاره الزمني الذي يتحقق فيه، لايتجاوز بضع ثوان، إذ سرعان مايستبد بي فضول قويّ جبّار، تنهار كل مقاومتي أمام قوته وجبروته، فأفتح عيني بين هنيهة وأخرى، لأرى التلة تغطيها، وتوشك أن تغطيني معها، أعشاب متيبسة. تنكسر تحت قدمي إذ أسير فوقها، فأسمع لتكسرها صوتاً مخنوقاً، شبيهاً... بأنين متوجع لكائنات تحتضر، بلغ بها اليأس من الخلاص من معاناتها، مع التشبث الطبيعي بأذيال الحياة، حد الإستنجاد بي. بي أنا الذي يملأني الهلع من إحساس ينبثق من داخلي، بأني قد غدوت على حين غرّة كائناً بلا حول ولا قوة، عاجزاً عن تقديم العون حتى لنفسه. فأقفز فوق الأعشاب، يحدوني أمل في تحقيق رغبة خرافية... أن تُنبت لي قوة سحرية ما أجنحة تحلق بي. طائراً فوقها ولا تدعني أدوس عليها، على هذه المخلوقات البائسة اليائسة... أو أستحيل بفعل فاعل، أعني بقدرة قادر هواءً رقيقاً لايلمسها ولا يمسّها. وإن مسّها أو لامسها... فبرقّة متناهية، لاتشعر به... ولا تتالم من عناقه. ولكن كيف السبيل الى تحقيق هذه الرغبة... وأين هو ذلك القادر القدير... الذي يشفق عليّ... ويغيّر حالي من حال الى حال؟

وفجأة، وما أكثر المفاجآت... وما أشد قسوتها على النفس، في عالم غاب... أو غُيّبَ... عنه وفيه، العقل والمنطق. وخالفت قوانين العلم والمعرفة نفسها، ألفيتُ الأرض المكسوة بالأعشاب تستحيل غابة من الشوك والعاگول. تمد مايمتد البصر،

كرات من الشوك محمولة على سيقان رفيعة ضعيفة من القلغان. ملفوفة بخضرة فاقعة... ذات فراء شوكي... تتخلله خيوط عديدة مصبوغة بلون بنفسجي أخّاذ... تقتحمني رغبة مهووسة في أكل واحدة من هذه الكرات، وإذ أفعل سريعاً، بلا تردد ولا تروٍّ، تبرز دفعة واحدة مئات المخالب الشيطانية المختبئة في مكان ما من جسد ما... المتكور... سكاكين حادة تتصدى لقدمي العارية... فأطلق صرخة خرساء مبلولة بالدم، مشحونة بالألم الذي تفجر في سائر أنحاء جسمي وفي الوقت الذي انتظر... أو آمل، في الاقل، أنْ يتصدع الكون لهول صرختي وعنفها. تروح ترتد الى جوفي، صمتاً بلا معنى... مخنوقاً داخل حلقي... بلا رجاء...

مدفوعاً بشعور خفي، لاأعرف كيف إنبثق من مكان ما من داخلي بأني أحلم... وأن الأمر كله، بالرغم من كل ما فيه من الآلام والأوجاع غير المعقولة، لايعدو كونه بأني واقع تحت تأثير حلم مزعج... أو كابوس ثقيل ضاغط على الروح والجسد... وسرعان ما ينتهي، إذ أصحو فأنجر من بين براثنه... أتجاوز آلامي وأوجاعي، أو بالأحرى أعطلّهما، واتكور على قدمي التي غربلتها أشواك لا عدّ لها ولا حصر. ولكني إذ أتحامل على رجلي الأخرى السليمة، يختل توازني واسقط فوق الأرض المزروعة بالأشواك والعاگول والصبيّر والابر والدبابيس وحافات السكين الحادّة وكل المخالب الإبليسية الأخرى، فيصرخ كل جزء من أجزاء جسمي... ويعيط ويولول. تخترقني موجة عارمة من الجفاف. تتدفق بها عروقي وكل نبضة من نبضاتها. وبإحساس عنيف بالعطش... وتلهفاً الى قطرة ماء تبلل حلقي إثر الجفاف الذي إحتواه وشرع يمتص صوتي وصراخي... أمد يدي لأقطف من بين النسيج البنفسجي خرنوباً، تخطف خضرته الريانة بصري، غير حافل بالابر التي تمزق جلدي.

مع القضمة الأولى يمتلئ فراغ فمي بمرارة شنيعة، لا أظن بحراً من السمّ يمكن أن يحوي هذا القدر البشع من المرارة، فابصقها بسرعة، وبحرقة شديدة. مصحوبة بدم أسود وبقطع سوداء، قد تكون اجزاء من كبدي الذي لابُدَّ ان يكون قد تفتت، أو إحترق في نار العطش المتأججة في داخلي.

من بين الأعشاب الأليفة المدجنة والاشواك المتوحشة، ترتفع بضع شجيرات... تشدني اليها بقوة... كأني أراها للمرة الأولى. فتهفو اليها روحي وتتلهف. ويخف بي أمل عميق أن ابلغها وارتمي تحت ظلالها... ناجياً ولو لبعض الوقت من نار الشمس الحارقة وسهامها اللاهبة المصوبة نحوي، بيد اني ولفرط يأسي وغيضي أيضاً لا أقوى على رفع جسدي المسجّى، المتهالك على نفسه. المثقوب والمبلول بالدم والألم، فأسير نحوها زحفاً على بطني تارة وعلى ظهري تارة اخرى، ساحقاً الادغال المبينة. فاتحاً اليها طريقي بصعوبة بالغة غير مبال بايّ شيء، عدا التنفيس عن

الرغبة المجنونة التي تتعملق في داخلي كلما يلوح لي ظل شجرة ما. ولكني إذ اقترب منها تصعقني الدهشة فأصرخ، يا لها من اشجار غريبة ترى اية اشجار هي؟ ما نوعها؟ ما اصلها؟ ما فصيلتها؟ ما؟ ما؟؟؟ خضرتها الداكنة واوراقها الكثة الصغيرة وأغصانها المتشابكة، توحي للناظر في الوهلة الاولى بانها اشجار زيتون. ولكن ثمارها المتدلية المختفية بين وريقاتها منها، والظاهرة للعيان تحمل على الاعتقاد بانها ليست اشجار زيتون، فحبات الزيتون لاتكون عادة بهذا الحجم. بحثاً عن يقين، يرش قلقي الملتهب، ببضع رشقات باردة من الإطمئنان، امعن النظر بدقة متناهية في العناقيد المتدلية أو فيما يبدو لي انها عناقيد متدلية، أقول لنفسي إنها اشجار كروم وأن العناقيد إنما هي عناقيد عنب. إلاّ أني إذ اتلمسها بأنامل مرتجفة أجد حباتها قوية صلبة لاتمت الى حبات العنب بصلة. ومخافة أن أنفجر في دوامة جديدة من الاضطراب الذهني والجهل ونفياً لكل الشكوك التي تغزوني، وتتقاذفني امواجها، اقرر متسرعاً وانا اتحسس هذه الحبات التي تستطيل إنها أشجار بلوط، نعم لابدّ أن تكون أشجار بلوط. اكرر ذلك بيني وبين نفسي بضع مرات زيادة في التأكيد وإقناع الذات. ولكن ما هي إلا ثوان حتى أجد نفسي مضطراً، رغم أنفي، على الإقرار بجهلي، والاعتراف بفشلي الأكيد في التعرف عليها... يا ربي ما هذه الأشجار؟ لماذا كلما حسبت بأني اقترب من معرفة حقيقتها تركلني قدم لامرئية وتبعدني عن هدفي المنشود؟ أهي مجموعة جنيات؟ زمرة ساحرات؟ تتغير وتتبدل، لاتستقر قط على حال تطمئنني الى الصورة التي أتوصل اليها بصددها. لماذا تعود الثمار الطويلة تقصر وتتكور على نفسها حتى تغدو... شبيهة بـ... بـ... بالجوز... بل... بل هي ثمار الجوز. والأشجار إنما هي أشجار الجوز والجوزات تتدلى من بين أوراقها عناقيد وفرادى، تضئ بخضرة قاتمة حيناً... وفاقعةً حيناً آخر بتناسب مشهدي رائع، مع حزم الشمس واشعتها وخيوطها المتسللة... خلال الوريقات والأغصان المتعانقة أو...أو لابُدَّ أن تكون كل شجرة من هذه الأشجار الغريبة، أربع شجرات في آن واحد وفي شجرة واحدة، والا كيف يتسنى لها أن تحمل أربعة أنواع مختلفة من الثمار؟ وهل أن ما تحمله ثمار حقاً؟ بل، بل هل هي اشجار أصلاً؟ أشجار حقيقية ذات أوراق وأغصان وجذور وفروع ولحاء و... وثمار؟ وسائر العلامات الدالة الأخرى، التي تشكل إذ تتشكل، هوية الشجرة

وصنفها المميز؟ أم... أم انها اشياء أخرى، لاتمت الى صنف الأشجار وفصائلها وأنواعها بوشيجة قربى؟

لا أدري... لا أدري...

وآه... وألف آه... من هذا "اللاأدري" من هذا الضباب الذي يغوّش الرؤية... ويفتت العقل ويرشه بالملح، ويحفر في الروح جرحاً لايندمل... وألماً لاينتهي، يخيّل اليّ انها إذ تلملم الشمس عنها وشاحها. وينحسر عنها ضياؤها، تشرع تغير حالاتها... تخرج منها، تغادرها تماماً وتستحيل أشياء أخرى. كائنات ظلامية... وموجودات معتمة... ككتل سوداء قاتمة... غير متناسقة في أشكالها متنافرة في ألوانها وأحجامها حيث يرتمي بعضها الى جانب البعض، أو يتكدس بعضها فوق البعض على نحو يعطي لاتناسقها هيأتها مزيداً من اللاتناسق والفوضى... مثل مقبرة الشيخ محي الدين التي تتوسد مدينتي الحبيبة كركوك منذ صارت تعرف بإسم كركوك، وربما منذ كانت تعرف في العهود الغابرة بأسماء أخرى، أرافا... أو كرخابيت سلوخا... أو أربخا... أو بيت نار گرگرا... أو قبلما تكون أساساً ويكون لها أيّ أسم، والتي تستقبل القادم من الشرق، بدلاً من باقات الزهور... مجموعة هائلة من القبور مجللة، إذ ترتدي المدينة ليلها بحجرة نيران بابا گرگر الأزلية المشتعلة ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً، قبر لصق قبر... قبر فوق قبر... قبر تحت قبر... قبور... قبور ولا شيء سوى القبور التي بات عددها يزداد على مرّ الأيام وساحتها تتسع وهي تمضغ لحم المدينة وضحاياها يكثرون وهي تفتك بالأحياء، حتى غدت المقبرة، في داخلها بين أحشائها في موضع القلب من المدينة، هل المدينة توسع بيوت احيائها... تبذرها هنا وهناك لتحتضن بيوت موتاها، أم المقبرة توسع بيوت نزلائها الدائمين لتطرد المدينة؟ وتواصل زحفها السرطاني نحو القلب فتصرعها وتحيلها مقبرة واحدة لايحدّها حد مزروعة بقبور لاعَدَّ لها ولاحصر، منها الصغير الصغير الذي لفرط صغره لاتراه الأقدام فتدوسه دون أن تشعر به ومن غير أن يحسّ الدائس بأنه قد داس على فم طفل رضيع، لم تنبت له بعد أسنان، لتسد بوابة فمه ولا تدع رائحة الحليب تسيل مخترقة طبقات التراب والرمل المهالة فوق جسده الغض الذي هو من الغضاضة والهشاشة والرقّة

بحيث لايطيق ثقل الهواء والنسيم الهاب فيعبّق جو المدينة... عفواً جو المقبرة بعبق خاص لاتنشره سوى أجساد الأطفال أو أجساد الطفل المتشظي- أو جسد الأطفال المذابين في بوتقة. أو المحشورين في قبر كالاسماك في علبة. ومنها الكبير... الكبير الذي يرعبني كبره ويروعني عنه غالقاً الطريق أمامي... فأتساءل ترى كم ألفاً يسكن هذا القصر الشيق القائم في هذا الخواء المخيف؟ بخطوات متعثرة مرتجفة أقترب منه... تسقط يدي على صفيحة حديد أو ذهب أو تنك، باردة برودة الموت الذي يملأه، فأقرأ بمعونه نور باباگرگر الخالد... لاأحد... سوى أحد... سوى الأحد... فأنكفيء على نفسي مصعوقاً... آه إن الحياة الثانية تواصل سيرة شقيقها التوأم بكل تفاصيلها ودقائقها حتى لاتبقى ثمة غير حياته... واحدة... سوى حياة واحدة... وحينما تعددت صورها واشكالها وتباينت الوانها وخطوطها فلها وجه واحد... هو وجه الأحد هو الوجه الواحد... كثير التجاعيد كثير الأقنعة... ولكن في النهاية كما هو في البداية هو هو. آه أين المفر... أين المفر... من الوجه المختبئ خلف آلاف الأقنعة؟ كيف الخلاص من آلاف الأقنعة التي تخفى الوجه الواحد؟ كيف... كيف... أين... أين؟؟؟؟ وفجأة وما أقل المفاجآت السارة وما أقصر زمانها ولكن بالرغم من ذلك، بل، ربما بسبب ذلك: ما أشد إمتلاءها بالسعادة والفرح... وما أعنف التلهف والإشتياق اليها...

يتسلل الى روحي الملتهبة هدوء... ناعم رقيق مثل نسيم شتوي في جو تموزي قائض. تسدل أجفاني المقّرحة... بحنان أمومي فائق العذوبة... أنامل نعاس ملائكية، فأستسلم للنوم.

النوم؟

وأنتفض، ما معنى النوم؟ ألست نائماً الآن؟ وكل ما يجري لي مجرد أحلام؟ وهل يحلم الا النائم؟ و... و... ولكن... أأحلم حقاً؟ أم أن مايجري لي هو الواقع... صور مختلطة... متداخلة من الواقع... وأنا يقظان. وهل يمكن لليقظان أن يحلم... أم يمكن للحالم أن يحلم بأنه يحلم؟ آه... آه... ما أغرب كل ذلك. وما أشد وقعه على العقل والروح!! أين الحقيقة من الوهم... أين الواقع من الحلم... أين تتوقف تخوم النوم؟ أين تبدأ تخوم اليقظة ما الفرق بينهما؟

ما طعم كل واحد منهما؟ كيف أميّز ذلك؟ انيّ استذوق كلاً منهما إذا كانا متداخلين الى هذا الحد؟ لكن مالك وكل هذه الأسئلة التي تنزلها على رأسك مطارق تشرخ حياتك... تهشم النوم في عينيك... إستمتع بنومك يا غبي. فالنوم وحده القادر على إنقاذك من بحر مخاوفك وفضاء أوهامك. تشبث به... بأنيابك وأظفارك ولاتدعه يفلت منك أبداً... استغرق فيه وإنزل الى أعماقه... أعمق أعماقه... نَم. نَمْ وسوف تستيقظ ذات حين لتجد نفسك مغسولاً من أوجاعك مطهراً من شكوكك محصناً بشجاعة نبيلة... تملأ أرجاء نفسك القلقة المضطربة. أغمض عينيك... أغمضهما جيداً. وهل هما مفتوحتان كي أغمضهما؟ كفاك يا هذا كفاك... أقلع عن الأسئلة التي لاتؤدي إلاّ الى المزيد من الجهل ولا تورثك إلاّ المزيد من العذاب والمعاناة. استسلم وأغلق كلتا عينيك... ولكن الفضول فيهما يغدو قذى وحفنة املاح يستحيل معهما توفر القدرة على اقتطاع اي جزيء من جزيئات الزمن للإبقاء عليهما خلاله مغلقتين... أنا اعرفهما وأعرف مدى الفضول فيهما...

أفتحهما بسرعة... الى آخرهما... فأرى التلة أو المقبرة حيث أقف... ضائعاً... مرتعداً... كأنها لم تعد التلة نفسها... ولا قبور... الشيخ محي الدين ظلت القبور نفسها... وإنما استحالتا بقعة من الأرض زالت عنها الوحشة، وغدت أليفة جداً وقريبة الى الروح أشد ما يكون القرب... إذ انها تبدو شبيهة، الى حد كبير، بالقلعة العملاقة التي تنتصب وسط معشوقتي كركوك منذ أقدم الأزمنة وأبعدها قلباً نابضاً بالحياة والمحبة... ببيوتها الصغيرة الجميلة... المتلاصقة حد التغلغل في جسد وروح بعضها البعض... بمحبة ومودة يفتقر كل العالم الآن وربما قبل الآن أيضاً الى القدر الأولي منهما... أرى بوضوح تام أزقتها الضيقة الليّنة الملتفة حول البيوت تخترقها... سواقٍ رفيعة طويلة تبدو المياه فيها إذ تجري بهدوء وطمأنينة، سلاسل وقلائد من فضة... تتلوى على نفسها وعلى مَنْ... وما حولها، تسبغ عليهما الجمال والفتنة... بنفس القدر الذي تمنح الحياة لأعشاب طرية بريئة... إتخذت ضفتيها مأوى ومسكناً آمناً... بين زهور يافعة طرية انشقت عنها الأرض ولم تمسها يد.

رداً على وساوس ماكرة خبيثة، تحاول أن تثقب قناعاتي وتهزها أقول

لنفسي بحزم وإصرار بل هي القلعة... القلعة العنيدة نفسها أعرفها جيداً مثلما أعرف باطن كفي... أعرفها بكل خفاياها وأسرارها ودروبها الملتوية والمستقبحة وبكل بيوتها العامرة والخربة المتهدمة والساقطة أو الآيلة الى السقوط والتهدم... والمهجورة بسبب ذلك تحديداً ولزوماً وليس لايّ سبب آخر. فما من أحد يهجر بيتاً قائماً آمناً قوياً متيناً يوفر الراحة والكرامة والسعادة والعيش الرغيد، راغباً أو حتى راضياً... ولكنه يهجره قطعاً وينفيه عن وجوده أو بالأحرى ينفي وجوده عنه وفيه مرغماً مضطراً، إذا ماتهدم أو تساقطت أجزاء منه وأجزاء ولم يعد بوسعه إصلاحه أو بناؤه من جديد لضيق ذات اليد أو لمنع مانع عنيد أو لقهر قاهر غشوم. أليس الامر كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس...؟

ما أكثر ما لجأت الى هذه الأمكنة الخربة المهجورة بإنتظار زمن اللقاء بفتاتي... وما أكثر ما لجأ اليها ايضاً زملاء وأصدقاء لي عديدون مدفوعين بالأمل نفسه دون أنْ أدعهم يرونني أو يدعوني أراهم مع أني أعرف حق المعرفة إنهم خلف حائط مهدم أو وراء باب موارب... ومع أنهم يعرفون حق المعرفة اني مختبئ في مكان معلوم. فتقاليد الفروسية حسب فهمنا الطفلي البرئ لها ولأصولها وقوانينها تعني من جملة ما تعني أن لايصدر من أيّ منا سلوك أو تصرف وحتى صوت أو همسة يسبب أي قدر من الإحراج للآخر... والويل كل الويل لمن لايلتزم بهذه التقاليد أو يخلّ بها... إذ سرعان ما ينبذ من الجميع ويبتعد. فهذه الخرائب التي نلوذ بها، وكلنا يعرف ذلك، قد غدت مرتعاً خصباً، ثراً للهوى والشباب وللقاءات طريّة مكتنزة ليست كلها بريئة... وإن كانت في مجملها تفتقر الى الخبرة العملية في شؤون الحياة... كالتي يعتنى بها الاكبرون منا حين يختلون بمن يسمى الجنس الآخر.

الجنس الآخر بالنسبة لنا، نحن الفتية، يتمثل تحديداً وقصراً في فتيات وصبيان... بأعمار الورود المتفتحة توها، للحياة للعشق... نصطحبهن راغبات أكثر الأحيان وممتعضات أو مرغمات بعض الأحيان بسبب من ضيق الوقت. الذي بالرغم من ضيقه، يمتلئ بفضاءات من القلق والخوف والإضطراب لاتسعها دهور برمتها. فنجرهن جراً ونجبرهن إجباراً... بين قبول ممتنع أو

إمتناع ينطوي على القبول والرغبة أكثر مما ينطوي على الرفض والكره... الى هذه البقاع الخالية من الطير والبشر، الزاخرة بالقطط والخفافيش. بعيداً عن عيون الأهل والرقباء والحساد... دخولاً في المناخ الملائم لخلوات قصيرات نادراً ما تتجاوز الدقائق المعدودات، أو يتعدى الفعل فيها حدود تماس اليد باليد وإحتضان الكف الواحدة المرتعشة المرتبكة اللينة... داخل كفين ليستا أقل إرتعاشاً وإرتباكاً وإن كانتا أكثر خشونة وأقل ليونة... ثم... ثم... انطلاق الرعدة الالهية التي تكهرب البدن كله... من أعلى شعرة، مدهونة معطرة مرتبة بعناية في الرأس حتى أخمص القدمين المسجونتين في حذاءين مشققين... وتفجرّ الرعشة الربانية اللذيذة التي تجعل الكيان كله يرتج... يختض يرتجف حتى النخاع... مثل عصفور صغير مبلول ناشه فجأةً برد قارس شديد.

وإذا لم يسعف الزمن العاشقين، وهو عقاب كثيراً ما يجود به الزمن الشحيح البخيل... إذ يتقلص ويضيق بالرغم من سرمديته ولا نهائيته... فلابدّ من اغتنام الفرصة وعدم تركها تسيل هباء بالقبض على الزمن الهارب وتجميد، بل تحنيط بعض جزئياته... وهنيهة صغيرة، مهما صغرت وقصرت كافية لتسليم وتسلّم ورقة وردية مصبوغة بلون القلب... معطرة بعبق الحبيب بحجم وردة الرازقي ملفوفة على نفسها وعلى مشاعر وأحاسيس طفلية صغيرة في ساحتها... شاسعة لانهائية فضائية في امتدادها وسلطانها وقدرتها على التربع على عرش النفس الأخرى... وغالباً ما تكون محروقة في أطرافها بنار الحب ولواعجه محروثة بخربشات ورسوم ذات مدلولا ت مختارة، قلب يخترقه سهم مدمى، حمامة تحمل رسالة شوق وتوق. أو تكون مبذورة بكلمات وعبارات مصاغة بلغة حرّة متحررة من كل قواعد اللغة وقيودها التي تغلها وتسجن شحناتها المندفعة بالعاطفة... مطرزة بمفردات أغان شائعة متداولة أو بأشعار قديمة وحديثة تراثية ومعاصرة... وكالعادة مسوّرة بالجهل في استيعاب معانيها ومراميها ورموزها التي يقصدها اصحابها.

أما إذا جال بخاطر الزمن، ذات يوم، أن يرحم... فيغفل أو يتغافل عنا بعض الوقت، وهو أمر لايحدث عادة إلاّ بمقدار مايحدث أن ينجو إنسان لايعرف السباحة من الغرق في بحر هائج عات. فتنطلق الجرأة من عقالها وتكسر كل

قيودها وتقتحم اللاممكن واللامسموح وتخدش الحدود في موضع صغير كان لخطف قبلة على أحد الخدين. لا أدري لماذا كانت قبلتي المسروقة من عين الزمن والناس تلك تخطئ طريقها دائماً... فتسقط على الجبين أو الحنك أو الأنف، أو تضيع في حقل السنابل الحريرية المحمولة فوق هامة حبيبتي. ولم يحدث قط ان بلغت وهي في سيرها، اعتقد المتردد، هدفها المنشود ولثمت الشفتين المكتنزتين أو حتى أحد الخدين الموردين. ربما بسبب الارتباك الذي كان يشملني من فروة رأسي حتى آخر ذرة تراب عالقة بقدمي الحافية... أو بسبب الرجفة الغريبة التي تسري في عروقي منذ اللمسة الأولى التي تتحسسها وتنشر بها انامليِ المرتعدة إذ تتصل بأيّ جزء من أجزاء ذلك البدن الرجراج ذي السحر الخاص. غير أن القبلة، مع ذلك أو بالرغم من ذلك ومن الإحباط الذي كان يحيق بها، كانت مترعة باللذة مشبعة بالفرح. قادرة ان تجعلني أحب بعد وقوعها، كأيّ حدث تاريخي استثنائي في حياة الفرد، أياماً عديدة قد تمتد أسابيع وشهوراً على طعمها... وعلى رائحة ذكراها العطرة المشحونة... والشاحنة بالمباهاة والزهو... دونهما مباهاة الطاووس وزهوه بألوانه التي لايمتلكها من بين كل خلق الله مخلوق سواه، وبروح الخيال المنطلق الجامح المجنح يرسم ويبني عوالم وعوالم من السعادة... أختال فيها فارساً وحيداً ذا امتياز لايملكه أحد من اقراني سواي حتى... حتى...

حتى تروعني ضحكة خجول أو قهقهة ساخرة مستهزءة من أحد أصحابي مصحوبة أو متبوعة بإستنكار شديد وإستهزاء وقع "قبلة... قبلة حسب؟ وأين؟ على... على الأنف"؟؟؟

ها ها ها... ها ها ها..."

ويضج أكثر من واحد من رفاقي بضحك داعر... فيهتز وجودي وتضطرب لغتي وتضيع كلماتي...

"و... و... وماذا أكثر من... من..."

ويمتص جواب المقابل بقايا زهوي وخيلائي... التي عبثاً أناضل للاحتفاظ به...

"إنبطاح على الأرض... تمرّغ فوق التراب... و... و... ثم... ثم من يضيّع رحمة

اغدقتها عليه السماء...؟ من يهدر خلوة كالتي تحققت لك... ويكتفي بقبلة... مجرد قبلة... و... و... على الأنف..."

"وا... خيبتاه... وا... خيبتك يا ولد!!"

فأطأطيء راسي... وأنكمش على نفسي... مدحوراً مخذولاً محسوراً خارجاً بل مقذوفاً خارج اللحظة التي كانت حتى وقت قريب جداً... ممتلئة بكثافة وجودي وثقل انتصاري وانجازي مع تصميم ينخر فيه الشك مثل دود نهم ان لاأدع فرصة اخرى إن تهيأت ثانية... أن تضيع أو تقتصر على تماس سريع بين الشفتين الملتهبتين وبين ارنبة الأنف الباردة الخامدة وحسب.

وفجأة... وما أكثر المفاجآت وما أبشعها أكثر الأحيان... يتلاشى عندي الإحساس بالأمان والألفة... وينكسر جناحاي المحلقان بي في فضاءات الخيال السعيد ويداهمني الخوف مجدداً... ولكن الخوف ممَ؟ من المكان؟ أما بات المكان معروفاً؟ أليست المعرفة حتف الخوف؟

وتروح الأسئلة- تدوي في ذهني، وهي تتناسل في داخلي بشراهة... ثانية. وثانية أيضاً لاأجد لها أجوبة ... ولا حتى جواباً واحداً شافياً أو نصف شاف... فأقذف بنفسي خارج كوابيس الأسئلة الدبقة وشرنقتها الخانقة... هارباً من لزوجة مديات الخوف التي تنسجها حولي... والقي بنفسي ومخاوفي في نهر الذكريات وأبذل المستحيل لجعله يتدفق مرة أخرى... علّه يحررني من اغلالي اللامرئية... يغسلني من كل ادراني... وعساه يغرقني أو يلطمني بقسوة الأم المنبوذة على إبن زوجها... بموجه وشطآنه... فقط... فقط... ليجرفني ويحملني بعيداً بعيداً. ولكن ما هي إلاّ هنيهة حتى يتوقف النهر... وينقطع عن التدفق وارتطم بصخرة حادة ذات نتوءات تشبه الحراب، ويثب على الخوف من مكان ما... كالصقر... ينشب مخالبه في جسدي ويطبق على خناقي، فأروح ألهث ويتكثف إحساسي بالضياع. ترى ماسرّ كل ذلك؟ أهو يكمن في هذا السكون المريع الذي يشرنق كل شيء... في هذا الصمت الذي يخيم على كل شيء؟ حيث لاحركة... لانأمة... لاصوت... لانسمة... ولاهمسة؟ وكل السكون مخيف؟ ولماذا هذا السكون الغريب المطبق على الكون؟ على قلب الكون الذي لم يعد ينبض... على رئة الكون التي لم تعد تتنفس؟ ألقي نظرة بانورامية شاملة على

ما حولي... فارى الأبواب مفتوحة على مصاريعها... والنوافذ مشرعة الى آخرها... وحتى الجدران وكل الحواجز الأخرى اراها. كأنها ليست جدراناً ولا حواجز... ولم تكن ذات يوم أبواباً وحواجز مادية قط، بالرغم من اطنان الحجر والطابوق والأسمنت والجص والحديد التي تكونها وتقيمها. فأنها تبدو شفافة مثل مستويات صافية من الزجاج تخترقها العين بكل يسر وسهولة... تخترقها الى أبعد مدى دون أن تصطدم بشئ، أي شيء من أيّ جنس أو صنف.

أغرق في... في نفسي ثانية... اخوض فيها اسبح في أعماقها متسائلاً ترى هل تصبح الرؤية العميقة، ذات المديات البعيدة المتعلقة التي لايمدها حد ولا يوقفها سد... مبعثاً للمخاوف والأفكار أو بالأحرى، الأوهام السوداوية والتوقعات المتطيرة الخرافية التي تنافي العقل والمنطق؟

محاولة شبيهة بمحاولا ت هرقل الأسطورية التي كان يحاولها في أفلام مغامراته العديدة، يكسر السلاسل والقيود الحديدية الضخمة التي كانت تقيده... ويحطم جدران السجون والقلاع والحصون المحكمة التي كانت تسجنه، احاولها أنا الآخر، ولكن ليس لاطلاق حريتي المسجونة... وجسدي المقيّد المغلول... كما كان البطل الأغريقي يعذب... وإنما على العكس تماماً لسجن وتقييد وغلٍّ... رؤيتي المندلعة باندفاع أهوج... لتهشم كل الحدود وتسبح في سماء بلا ضفاف، فاسدّ كلتا عينيّ بقوة، ولكني إذ أفعل أكتشف، ويالهول ما أكتشف، إن عيني بلا جفنين. بيد أني حين أتحسسهما بأناملي أجد الجفنين لايزالان في موضعهما... فتتضاعف هواجسي ووساوسي. إذن ما الأمر؟ لماذا لم يعودا يقومان بواجبهما؟ لماذا لايحجزان عنهما الرؤية؟ لماذا لايمنعانها من هذا الإنطلاق الإختراقي اللامحدود؟ هل استحالا الى جفنين من السليفون الشفاف؟ آه... يا الهي... كيف السبيل الى وقف الأشياء والموجودات الخارجية من زحفها العدواني الى داخل عينيّ؟ تقفز الى ذهني اجابة سريعة... خانقة بذور القلق المنبثقة بين طيات ارض ثرة ولو.

"كفّاي... ما زلت أملك كفين..."

وهما مصنوعتان من عظام ولحم وجلد وعروق... و... وكلها أشياء معتمة أعني غير شفافة... تحجز الرؤية وليس بوسع العين أن تخترقها... ولكن...

ولكن ما هذا؟ ما هذا الذي يحدث... آه... لا لا أن هذا أمر لايصدق البتة... إنه... إنه... غير معقول غير معقول تماماً... إن الخوف، كل الخوف، وبابشع صوره وحالاته يتمثل فيه...

الخوف... الخوف ثانية... يكاد يلاشيني...

وخوفاً من أن يقضي عليّ الخوف ويلغى وجودي تماماً... وحرصاً على نفسي ونوعي من الانقراض الأبدي يفرز تشبثي المشروع بالحياة... حياة نظيفة... خالية من الخوف. فكرة... فانساق وراءها راكضاً لاهثاً حتى اقبض عليها واروح اشبعها درساً وتمحيصاً... وصولا ً الى الإقتناع بها والإستسلام لها. وأتساءل بجديّة... لماذا لاأقهر خوفي؟ أعني لماذا لاأخيف خوفي وأجعله يرتعد فرقاً ورعباً ويهرب مني... ينهزم بكل جبن وخسة أمام جبروتي و... سطوتي... ولايجرؤ بعد ذلك عن الإقتراب مني... ناهيك عن إقتحامي وملئي بنفسه وبأنفاسه الكريهة... ومخالبه الاخطبوطية؟ اطلق خوفي الممتليء بكل مخاوفي، اسفجنة يابسة جافة، في بحر خوفي... لتجففه... تيبّسه تماماً... بلا رحمة ولا شفقة... تمتصه كله تشربه حتى آخر قطرة من قطراته... فتظهر في أعمق أعماقه الحصى... تموت فوقها عطشاً سائر الكائنات التي تحيا فيه وتعتاش عليه... وعلى مايوفره لها من طعام وشراب. لهنيهة قصيرة تبتلّ الأسفنجة وتخضلّ حين تمتص كمية من مياه الخوف حولها... ويثقل وزنها الى حد ما. فأقول في نفسي ذلك حسن... وإشارة طيبة الى أن فكرتي ناجحة وبوسع الأسفنجة أن تشرب مياه البحر... ولكن المياه بلا مدى... ولكن البحر بلا حدود... والأسفنجة صغيرة... ناعمة قليلة الحيلة... وإذ تظل تشرب وتعبّ يكبر حجمها ويزداد ثقلها... وتغدو كتلة ثقيلة من طين... من صخر... بل... بل من رصاص وحديد وفولا ذ وكل المعادن الثقيلة وتجثم على صدري، تسدّ كل مسامات جلدي... تخنق انفاسي وعبثاً أبحث عن وسيلة ما... لزحزحتها... والخلاص من ثقلها الخرافي. حتى أعواني... حتى ما كنت آمل منه العون والمساعدة في محنتي يستحيل ضدي... يعمل على تدميري آه... آه... لاأملك غير أن أصرخ آه... آه... وأكرر صراخي دون أن يجديني فتيلا...

أعطي ايعازاً ليدي... بدفع هذه الكتلة المهاجمة عليّ، وإبعادها عني قبلما

أختنق... بيد أني أرى يدي... بل كلتا يدىّ، بكل ما فيهما من أوردة وشرايين وأظفار وجلد ولحم وعظم... قد تحولتا الى ماسورتين من زجاج صافٍ شفافٍ لاتشوبه شائبة... كنبعٍ من ينابيع المياه الرقيقة الرقراقة التي تثرى بها قمم ئاوەگرد وسەفين وپيرەمگرون... والتي كثيراً ما كنت أركع أمامها... لعلي أرى صورتي على صفحاتها وما آل اليه شكلي بعد شهور عديدة من الانقطاع عن المدينة والانزواء الى الجبال والوديان وتأسيس علاقات صداقة ومحبة حقيقية فيها... فلا أرى في قاعها المكشوف سوى أحجار وحصى صغيرة متناهية في الصغر... اجتمعت فيها ممتزجة ومنفردة كل ألوان الكون... تختال خلالها اسماك بحجم النمل... وهي تلهو وتلعب آمنة مطمئنة أنْ لاعابث يعكّر مزاجها.

ترى هل أن يديّ وحدهما قد صارتا بهذه الحال الغريبة أم أن كل كياني قد بات كذلك؟ وإذا كان ما حدث ليدي قد حدث لجسدي برمته... فما العمل؟

يجب منع عيني من النظر الى أعضاء جسمي بأيّ ثمن. ولكن كيف؟ ان في عيني فضولاً يضاهي فضول كل فضوليي العالم، ستسرقان مني غفلة من غفلاتي التي لاتفارقني، وتشبعان كل جسمي فحصاً وتمحيصاً وتدقيقاً آه... الكلبتان... يتحتم عليّ قلعهما قبلما تشرعان بالسرقة... وبدون اي تردد وبتصميم صارم... انقل الفكرة الوليدة لتوها الى يديّ لتنفيذها. إلا انهما لدهشتي الصاعقة، تمتنعان أو بالأحرى- تتوقفان في منتصف الطريق... نصف مشلولتين، يشلهما سؤال مريع، وبعدما أفقأ عينيّ... هل أحيا حياتي التي لاأزال اجهل أيامها ولياليها... بلا عينين؟ وما قيمة حياة بلا عينين؟ ويرد على السؤال سؤال أكثر خطورة، ما قيمة عيون تخترق الموجودات كلها دون تفريق أو تمييز، كما تخترق السهام المنطلقة أحشاء الهواء، بلا مانع ولا حاجز ولا حتى رادع؟ ماذا افعل بعيون شبيهة... بعيون الموتى المدفونة معهم تحت التراب. تنفذ الى أعمق الأعماق ولاتتوقف عند حدود المسموح والممنوع. ويتسلل الى داخلي في فوضى الأسئلة المعلقة بلا أجوبة سؤال، وهل عيون الموتى كذلك حقاً... فصعقني الأمر... واسرع بالإجابة لابُدَّ ان تكون كذلك. وإلاّ فلماذا تظل عينا الميت مفتوحتين الى آخرهما حتى يتطوع أحد بإغلاقهما

وإسدال الجفنين فوقهما... كما تسدل الستارة على المسرحية بعد نهاية فصلها الأخير... ولكن ماأدراني أنا بكل هذه الحقائق ثم... ثم... هل هي حقائق أم مجرد خرافات وأوهام؟ انى لي ان أعرف، ما دمت أنا نفسي لم امت قط، ولا حتى مرة... واحدة طيلة حياتي التي تبلغ نصف قرن من الزمن... مثلما لم أكن بالمتطوع الذي يغلق العيون ويسدل الأجفان.

آه... ليتني أعرف... ليتني أعرف، فمن شأن معرفتي بهذه الأمور أن توجه ارادتي الوجهة الصحيحة... اما وأنا لاأعرف... فمن المستحيل أن اتبين الصحيح من اللاصحيح.

في مكان ما من تلافيف دماغي وأحشائه الحبلى بالأفكار والمشاريع والوساوس، تلد فكرة، أن أجرّب عينيّ في أمر آخر... فأنت منذ حللت في هذا المكان تنثر نظراتك المنفلتة فوق البيوت والجدران ولم يحدث أنْ تأملت الأرض التي تقف عليها، ومن لحظة ولا دتها... تدخل الفكرة الجديدة، صراعاً مع ترسانة الافكار الأخرى المترسخة، غير حافلة بحداثتها وقلة خبرتها وضآلة تجاربها، إزاء قلعة أفكار أكثر قدماً ومكراً... وأشد قدرة على التملص من أية مواجهة... غير مضمونة النتائج، ولكن ربما لأنها مقحطة بالخوف، فسرعان ماتنخذل وتنهزم... وتستحيل الفكرة الوليدة أمراً ملزماً... هيا... هيا... أمعن النظر في الأرض... اغرس فيها نظراتك... ولكن ماذا لو اخترقت نظراتي... النافذة كالطلقة... طبقات الأرض الجيولوجية. ونزلت عميقاً... عميقاً، مخترقة كل ما تصادفه من رمال وصخور ومياه ونفوط وأشجار متحجرة... وحيوانات منقرضة من ديناصورات... وماموثات... وكائنات ولا كائنات... وعبرتها الى اكوان أخرى، وكائنات ومخلوقات اخرى في كواكب وحجرات ارضية، لم يرها حتى غاليلو، طيب الذكر، الناظر دائماً الى السماء الزاخرة... بالنجوم والأقمار، قبل الصناعية، ولم يكتشفها اي ميكرسكوب أو تلسكوب. أو أي كوب آخر، بعد غاليلو... وناظوره الفكاهي... "لا... لا... لن أفعل..."

وأظل أحدق في الفضاء... وأرنو الى المجهول... أسدّد نظراتي الى الأفق الأبعد... والأبعد، باستقامة، يبدو تلسكوب غاليلو نفسه، ازاءها شيئاً مبتذلاً... يقدمه لك هذه الأيام، اي مقهى مع قدح الشاي.

لكن الأمر يمتشق حسامه في وجهي، ويتصدى لي بجبروته المعهود وروحه الدكتاتورية الطاغية، حرك رأسك نحو اليمين، ادرها الى اليسار... انظر الى الأمام... التفت الى الخلف... ازرع عيونك في الأرض. جرّب يا هذا... جرّب كل الاتجاهات... جرّب كل المسالك... كل الدروب ماذا يضيرك... ما الذي تخسره إن جربت... الناس هذه الأيام، يتخذون الناس حقولاً لتجاربهم، في المختبرات والطبيعة... وعلى أرض الواقع ايضاً. فلمَ تخشى انت سقوط نظراتك على الأرض الصلدة... أسقِطها... يا رجل... أسقِطها.

بعد تردد طويل ... وطنين الأمر الآمر... لاينقطع عن اذني... وبوجل شديد... تسقط مني نظراتي على الأرض، ادعها اول الامر تنسكب... نقطة... نقطة... قطرة فقطرة... ثم تشرع، على الرغم مني تسيل وتنزلق فوقها... من غير أن تخترقها وتنفذ خلالها... بل حتى من غير أن تخدشها... إذ تلامس القشرة العليا... وتتكوم على نفسها... وبإرادتي، هذه المرة، ارادتي الشخصية البحت، أبثّ فيها الحركة... وأشحن فيها القوة والقدرة على كسر إطار المكان المحدد، وتحطيم القيود التي تغلها... وتربطها الى بقعة معينة. فأتعرف إذذاك، على جغرافية المكان بصورة أفضل... هذا هو الشارع الأسفلتي المجدور... الذي يلتف حول خصر القلعة... المنتفخ الجاثم على الأرض... التفاف حزام جلدي متشقق مرّقع بألوان شتى... يربطها مع بعضها البعض لون واحد... يغتصب صبغته الاساسية من اللاتناسق والتنافر. وتشد اجزاءه المفتتة... ثلمة هنا... ثقب هناك... تهروء في مكان آخر... كما لو كان حبل اعدام تراثي عتيق هرّأته كثرة الرقاب المظلومة التي إلتف حولها... يتأفص حول رقبة عجوز، انتزعت منها اسنانها عنوة، واقتلع شعرها اغتصاباً، إلاّ خصلات باتت تتوزع فروة الرأس القرعاء، التي تكشف عن عيوب وعورات، عبر مساحات اوسع وأكبر من تلك التي تسترها... خجلاً من العيون التي تحدق فيها وترنو اليها... بدافع الفضول أو الرثاء... أو الشفقة والاحسان.

بمحاذاة الشارع الحلقة الداخلة نهايته في بدايته، وعلى مبعدة امتار وحسب... وبالتحديد... في أشد انحناءاته انتفاخاً، ارى بوضوح نهر "خاصة صو"... ذلك الشيخ الهرم الذي إمتصت الرمال لعابه فتلاشت فيه الرطوبة...

ولم يعد ثمة غير الشقوق والأخاديد والحفر، وبات النهر العتيد فاتحاً شدقيه... كفكي تمساح خرافي يملأ جوف فمه آلاف... بل ملايين الأسنان الحجرية الناتئة. ثابتة ومتحركة... مترامية على مدّ البصر المتقلب في سائر الاتجاهات، تحيط بها الأتربة والحصى الناعمة التي داستها أقدام الزمن الثقيلة... وطحنتها طحناً... فأحالتها الى رمال، دونها رمال الصحارى. وأشد مناطق الجفاف جفافاً ويبساً... آه... ما أبشع وأوجع على القلب... أن يستحيل نهر ما، أي نهر الى صحراء قاحلة يفترشها العطش... ويتآكلها التشقق. وتنتحر فوقها الجمال ونباتات الصبير... تموت فوقها الشمس والقمر والنجوم وتدفن نفسها في مقابر الكثبان المبثوثة هنا وهناك بصمت. وبلا حزن ولادموع... ولاتشييع ولاعزاء، ومن غير مجالس فاتحة يسفح خلالها الأهل والأقارب والأصدقاء مشاعرهم الدفينة... المحبوسة... فتخفف بعض الشيء، من ألم المصاب الجلل. والحدث الفادح... والفجيعة الكبرى.

مؤلم... مؤلم... حد القتل... أن التقي بنهري الحبيب، بعد فراق طويل وهو على هذه الحال البائسة... من البؤس والعري والموت البطئ... وقد حفرت فؤوس الزمن خندقاً عميقاً بينه وبين تاريخه، القريب والبعيد، الملئ بالأمجاد أعني بالمياه والحياة. فقد كان ذات يوم، ضاجاً... صاخباً... كأي شاب في عنفوان قوته وشبابه... يتدفق نشاطاً وحيوية... يملأ الدنيا ضحكاتٍ وقهقهاتٍ. تستيقظ كركوك كلها على كركراته، مثلما كانت كرخا بيت سلوخ منذ قديم الزمان تستيقظ... وتهرع أول ماتفيق متوشحة... بالغلالة الرقيقة الحمراء، التي تنشرها نيران باباگرگر فوق المدينة الى لقائه... وعناقه... في مشهد إحتفالي يزدري بأضخم المهرجات وأكثرها بذخاً وتبذيراً...

وحتى وقت قريب، ظلت النسوة... يملأن الجرار من خيره الثرّ وعطائه الدائم اللذين لم يعرفا التوقف ولا الإنقطاع... وينزع الصبية والفتية والشبيبة ملابسهم... وتلتمع بشراتهم بالحمرة الگرگرية الجذابة... قبلما... يحتضنهم النهر ويروح يغطيهم... بأرديته الرقيقة الناعمة... وحنانه الأبوي والاموي... ويدلك لهم اجسادهم الفضية بامواجه وانامله الروّمات... ينظفها مما يعلق بها عادة، من أتربة وأوساخ... وهم يمارسون طقوسهم البريئة في اللعب واللهو... ولا

يدعهم يغادرون احضانه الرحيمة الشفيقة... إلا بعدما يجعل الشمس الكريمة السخية... تلتمع فوق جسومهم الطرية... ليعودوا بعدها الى بيوتهم ومدارسهم وكتاتيبهم خفافاً نظيفين... وهم على موعد لقاء اكيد... غير معلن ولكن متحقق حتماً، مع النهر الحنون في اليوم التالي فلا هم يملّون... ولا النهر الصبور الحليم يضجر.

وللرجال مع النهر... علاقة عشق من نوع آخر... علاقة كدّ وعمل ونصب... وصولاً الى القوت اليومي... المعجون بالعرق والتعب... يسرعون اليه... مع الرشقات الأولى من وهج الشمس... ليفتحوا المديات والمماشي التي... تمتد خلالها أذرع النهر حاملة رسالة الماء الى الطير والشجر والبشر... والجماد والنبات والحيوان، عبر السواقي والنهيرات التي يشقونها في جسد الأرض... ليرووا عطش الثمار والخضار والأزهار... الرافعة رؤوسها وقطوفها على اطرافها... بالتناوب... مع بعضها البعض... وأحياناً في الآن نفسه... كالأم التي لاتفرق بين اولا دها... وتغدق عليهم حبها ووفاءها... بسخاء وكرم... لا حدود لهما... ويقضي النهر النهار كله... حتى تجر الشمس آخر خيط من خيوط ضيائها... يسقي المزروعات، المختلفة المتنوعة، التي تزخر بها ضفتاه... أو تتشكل لوحات... ولوحات... وحقولاً وحقولاً... على أطرافه، ومع هبوط الليل... ينحسر عنها... ليتركها تنام... ولكن دون ان يفارقها... إذ يظل رابضاً على مقربة منها... يحرسها... يعطر لها أنفاسها... ويغني لها... تنويمته الحنون... على انغام عزف خريره الشفاف... الذي لفرط شفافيته... يكاد يُرى... و... يُلمس.

آخ... آخ... وألف آخ... كيف شاخ هذا النهر، الآن؟ [عندما في العلى لم تكن هناك سماء، وفي الاسفل لم تكن هناك أرض. وأبسو الأولي "الماء العذب" الذي منه سيولد الآلهة. والوالدة تيامات "الماء المملح، مصدر كل حياة" التي ستلدهم جميعاً. كانا يمزجان مياههما معاً. وإذ لم تكن المراعي مجتمعة ولا القصبات منظورة، وإذ لم يكن قد ظهر أحد من الآلهة، ولم يكن قد... حظى باسم ولا بمصير. إذ ذاك من احشائهما، خُلقت الآلهة] آخ... كيف شاخ... خالق الالهة... وتساقطت اسنانه... أحجاراً وحصى ورمالاً... منثورة هنا وهناك... وتفتت جسده اشلاء ومزقاً... مبثوثة هنا وهناك... بإنتظار... ساحرة...

تجمع له اجزاوه المفرقة... وتنفخ فيه الحياة من جديد، ليعود هو بدوره، يبث الحياة في كل من وما حوله من الانسان والنبات والجماد والحيوان، بإنتظار... تموز... "دومو- زي- أبسو" الإبن الاصيل لأبسو، رمز النبات والخضرة التي تموت وتختفي... ثم تولد وتخضر من جديد" ليعيد الى الحياة... وجهها الجميل... جمال وجه الشاب دموزي... فدموزي لم يمت... دموزي يحبسه... ايركالا "إله العالم السفلى" تموز... لم يمت... تموز يحبسه خنزير بري... وسيخرج من احشائه ثانية... والانتظار لن يطول... لن يطول أكثر مما طال... فقد طال حتى قضم طوله... حتى أكل صبره وهضمه... وتقيأ جفافاً يكاد يخنق أبسو نفسه... عطشاً... وليلاً اسود... يوشك أن يطفئ ضياء بابا گرگر...

يفصلني عن نهري- حيث يرقد أبسو، نهر الصخور والرمال والأحجار... غير الكريمة... أعني غير الثمينة التي لاتباع في أسواق البورصة والشورجة... والبازار... ولا يتكالب عليها السماسرة والسمسارات... مثلما لاتحفظ في صناديق الأمانات في المصارف والبنوك... وتغلق عليها الأبواب والفتحات. كما لاترضى أية غادة من الغيد الحسان... وغير الحسان ايضاً. أن تزين بها جيدها... إبتداءً من إينانا التي ألقت بالشاب تموز الى العالم السفلى... حتى حفيدتها التي تحرق الشباب في العالم العلوي- شارع مهدّم... هو الشارع الطوق... الشارع الحلقة... الشارع الدائرة المتصلة نفسه، الذي كثيراً ما حرقته قدماي... جيئة وذهاباً... غير أن الشارع على خلاف عادته التي أعرفها فيه، أراه خالياً... مدقعاً... لاإنس ولاجان لابشر ولاحيوان... لاطير ولاشجر... لاشمس ولاقمر... بينما كانت الشمس إذ تجدني ادبُّ فوق الشارع... تلقي بنفسي، دعابة أو بحكم الضرورة أمام قدمي... حتى لأكاد اطأها... كلما سرت نحو الأمام... أو تلقيها خلفي... وحين ألتفت وأراها ورائي... أتركها... وأواصل سيري... وسط سيول بشرية، لاأدري من أين تتدفق. ولا الى أين تتجه... وكلهم يلاحقون أنفسهم التي ترخيها الشمس أمام عيونهم... أو يسبقونها إذ تتخلف عنهم... أو تسبقهم مرتسمة على ظهور اقرانهم الذين يتقدمونهم... سوداء قاتمة... كأنها خرجت لتوها من تنور مسجور.

وفي الليالي، لاتتغير الصورة كثيراً... إلاّ في انحسار بعض الحشد،

وإستحواذ الظلال التي يرسمها القمر أو بابا گرگر... ويلقيانها... أمام اصحابها أو خلفهم... على ساحات أوسع... والسائر في الليل يجد نفسه في ظله... كأنه ليس نفسه، وأنه قد دخل قاعة من قاعات المرايا العاكسة... التي لاتعكس الحقيقة أبداً... تماماً كعين المبغض... أو كعين المحبّ.

ولكن الليل فوق هذا الشارع... أقصر عمراً... من الليل فوق أية بقعة من بقاع المعمورة... إذ لايمكث ابداً اطول مما يمكث الشبع في بطن المعدم... وسرعان ما يجرفه سيل متواصل لسيارات مجنونة... بأضوية قوية أكثر جنوناً... أو سير متقطع لأقدام تبحث أو تروح لتصنع لقمة تلقيها في الأفواه التي تحملها... أو الأفواه التي تركها مغلولة بالمرض أو الضعف... مملوءة بالنوم المتقطع بالتأوهات والآهات... وهي تسير الى جانب أو أمام أو خلف عربات... تجرّها خيول أو بغال... أو حمير... هزيلة... نحيلة، تعاون الجوع والتعب... والسياط المسلطة على ظهورها... وهي تأكل من لحومها... وتترك آثار أسنانها على عظامها... في رسم أشكالها الكاريكاتيرية... التراجيكوميدية. وأحياناً ترى رجالاً أو... صبياناً... أو حتى نساءً... يجرّونها... وهم جميعاً... لبسوا أحسن حالاً من الدواب... في هزالهم وجوعهم... وساعات بحثهم وعملهم الدائب... المتواصل.

تسحق العربات نفسها بنفسها... وتلقى ببقاياها في حفر منتشرة على امتداد الشارع المتآكل... متفاوتة في مديات فتحات افواهها الفاغرة، على الدوام، التي ما تكاد تفرغ من مضغ الأرجل المطاطية حتى تمتلئ بكائنات ومخلوقات ومصنوعات... أخرى وأخرى، في حركة دائبة... نشطة... لاتعرف التوقف ولا تمنح نفسها فرصة لإلتقاط أنفاسها اللاهثة... المتلاحقة... ولا تفكر حتى هنيهة واحدة، في الركون الى الهدوء... وإسترداد بعض الراحة... وتجديد شيء من العافية والنشاط... اللذين هي بأمس الحاجة اليهما... لمدّ الحياة في اليوم الثاني... الذي سوف لايختلف عن اليوم أو الأمس... إلاّ بكونه أكثر مشقة وأقل راحة... وأشد استهلاكاً للطاقة البدنية... للرجال والنساء... والعربات والخيول على حد سواء... أو بتفاوت قليل... لصالح الحيوان والجماد... اللذين باتا يشكلان هذه الأيام، رأسمالاً... أثمن من الإنسان.

بينما غدا الشارع الآن يلفه... ويلف معه الحياة المتدفقة الضاجّة الصاخبة... صمت... أقسى وأمرّ من القسوة التي يلف بها نفسه ويلتف حول قلعة كركوك العملاقة... يملؤه فراغ لايوازيه ولا يدانيه إلاّ الفراغ الذي يسير فوقه... يتخلل سائر اوردته وشرايينه... يتجسد في نومه... ويقظته... و...

و... فجأة... وماأكثر المفاجآت وماأشد وقعها على النفس...! ! يهزّ الكون... ويهزني معه... صخب وضوضاء... وضجيج... واصوات. و... و... و... لا ادري ماذا ايضاً... فالأشياء، كل الأشياء، تبدو متداخلة... ومتشابكة... ومختلطة... الى حد تفقد مسمياتها... ولا تستقر اية تسمية على ايّ منها... وإنما تنزلق بسرعة هائلة... لتفرز أو تكتسب لها مسميات أخرى... لاتلبث ان تتغير وتتلاشى... لتحل محلها... اسماء جديدة... لا اعرفها ولا عهد لي بها من قبل... فالكلمات تهرب أمام الزحف اللامنطقي للأصوات، حتى تكاد تختفي وتضيع في خضمها... إلاّ صرخة واحدة تنشق من اعماقي وترتدي جلداً من كلمات منسوجة من خيوط الدهشة:

"لقد دبت الحياة في النهر، في جسد أبسو الميت، في نهر... الصخور... والأحجار... والرمال والأتربة..."

شرعت الحياة تحيا، من جديد، ضاجّة صاخبة، يصم صخبها الآذان، يصدم ضجيجها المعقول... يهزّ عنفها الجنان.

ايّ نبع إلهي تفجر في السماء، وصبّ كل مياهه في النهر الشيخ فتدفق بذلك القدر المجنون من الجنون؟ هل افاق دموزي وكسر اغلاله وقيوده... وبث الحياة مجدداً في أبسو، الماء العذب... في الوالدة تيامات، الماء الملح... مصدر كل حياة... وأخذا يمزجان مياههما معاً، مرة ثانية، مثلما كانت الحال قبل آلاف الأعوام... عندما لم تكن في العلى سماء... ولم تكن في الأسفل... هناك أرض؟ ولكن ماهذا...؟ ماهذا؟ يادموزي... إن ما إنشقت عنه السماء، أو انفجرت به الأرض... وفاضت منه ضفتا النهر... ليس مياهاً... ليس أبسو الممتزج بتيامات... إنما هي أحجار... أحجار مغسولة بمياه لا وجود لها... وماهذا بفعلك يا بن أبسو الأصيل. آه... آه... الأحجار تسيل... لا... لا إنها لاتتدحرج... وانما تجري وتسيل... ألوف الأحجار... ملايين الأحجار...

بلايين الأحجار... متباينة في احجامها... مختلفة في الوانها... متفاوتة في سرعتها... منها الكبير الضخم الذي يندفع بسرعة خارقة مثل طيش الشباب... ومنها الصغير الرضيع الذي يحبو ويجاهد مستميتاً... للحاق بالكبار، تارة بالتسلل بين الفتحات والفراغات التي يتركونها... وأخرى بتسلق الاكتاف... وثالثة بالقفز فوق الظهور، ولكن بلا جدوى ولا نفع... إذ تظل، وعبر مسافة، تتقلص حيناً... وتتسع احياناً... تلهث وراء الأحجار الكبيرة... التي تتضخم... وهي تتراكض... تتسابق... تتسارع الى... الى المجهول... وفي سباقها الطائش اللامعقول... يسحق يعضها بعضاً... يهشم بعضها بعضاً... دون اية مراعاة لفارق الحجم... أو السن... أو التاريخ... كل يريد أن يكون هو، لاغيره، في المقدمة... ويروح يبذل المستحيل في سبيل تبوّء... تلك المكان، وحيداً بلا شريك، مع ان كل قوانين الدنيا وربما الآخرة ايضاً، تنص على ان ثمة البعض في المقدمة وآخرون في المؤخرة، إذ لايمكن ان يكون هذا العدد الهائل، كله، في المقدمة في صف واحد، لايتقدم احد، ولا يتأخر أحد.

على ذكر التأخر والمؤخرة... يداخلني فضول... بأن القى نظرة على مؤخرة هذا السيل الغريب... وعلى المتخلف من اللحاق بهذه... القافلة... المجلجلة الصاخبة... فارى احجاراً أكثر عدداً... أكبر حجماً أشد تسلطاً... أقل تسامحاً... تتدافع... تتصادم، مصممة لاعلى اللحاق بالأحجار التي تسبقها وحسب، وانما على قهرها ودفعها الى الوراء... وان ابت ان تتراجع... وتفسح لها الطريق... طواعية، فسحقها... والسير فوق جثتها... وفي سبيل هدفها هذا... تدخل معها صراعاً مريراً... دموياً... جثثياً... تتضارب معها... بكل ما أوتيت من قوة وعنف وضراوة... فتتساقط... أشلاءً... أشلاء... دون ان يروّع ذلك أحداً... بل دون أن يعني ذلك شيئاً... لأحد.

يستمر تدفق الأحجار... من ينبوع ، أو مستودع... لايمكن تحديد مكانه. ويتواصل مع التدفق الجريان الذي لايتوقف إلاّ لحظات قصيرات، لحسم معركة طارئة، أو لتصفية حساب قديم... أو الأخذ بثأر أكثر قدماً... أو التنفيس عن انتقام مكبوت حتى... حتى يمتلئ النهر، كما لم يمتلئ... طوال تاريخه.

ماذا لو فاضت مياه النهر؟ أعني أحجار النهر... وتكومت الأحجار فوق

الأحجار... الصخور فوق الصخور... وألغت عمق النهر... ومحت حدوده القائمة... وغزت الشارع المجدور... من كل موقع... ثم راحت تتسلق اكتاف وقامات بعضها البعض... أكثر فأكثر... وبلغت القلعة حيث أقف متفرجاً... على هذه المأساة المريعة... التي تجري فصولها أمامي... وثم... تجرفني السيول الحجرية معها... وتسحقني في زحفها الكتلوي، الذي لايلوى على شيء... يحرق الأخضر قبل اليابس؟

لا... لا... أنفي مخاوفي بهزة من رأسي، قوية، كما لو كانت ذبابة لحوحاً... ملتصقة بنقطة دبس فوق ارنبة انفي... اطردها فتعود اطردها وتعود... اين السبيل الى طرد مخاوف متجذرة في الجسد والروح، يسقيها كل مايحيط بي، بأسباب الحياة والقوة؟

خارجاً من كابوس الأسئلة المرعبة التي لايرعبها شيء، أغرق في حركة الأحجار... فأرى سرعة جريها قد تضاعفت اضعافاً... مضاعفة... واتخذت، جراء ذلك، هيئات واشكال كائنات ومخلوقات غير مألوفة... أهي مجموعة حيوانات شرسة مفترسة متوحشة... يدفعها جوع خرافي الى وليمة دسمة، تحت رعاية قانون الغاب وشرائعه وطقوسه السماوية والأرضية، التي... ما أنزلت بها السماء ولا اقرّتها الأرض؟ كل حيوان يسابق وينافس أخاه أو أباه أو أمه أو أبنه... أو... أو... أو... ليكون هو الفائز... بكرسي الصدارة، على المائدة المنصوبة، في عراء ما أو في غابة ما ، زاخرة بألوان الطعام واشكاله المتعددة المتنوعة. مهلاً... مهلاً... ايها السادة الوحوش... ايها الوحوش السادة... فان الكرسي الذي تتسابقون من اجل الوصول اليه، ويسحق في سبيله بعضكم البعض أو كلكم الكل... ويدوسه بلا رحمة ولا شفقة... محجوز... محجوز منذ زمن طويل قبلما تكونون نطفاً في ارحام امهاتكم... بل وحتى قبلما تكونون افكاراً، أو مشاريع حياة في أذهان ابائكم، ان كان لكم آباء وامهات كسائر المخلوقات، منذ عهد قابيل وهابيل... وقابيل المتربع فوقه بكل جبروت، المستمتع بكل مايمنحه من امتيازات ومغانم، لعلى استعداد... للفتك... بألف هابيل، من اخوته وبني جلدته... ولا يتزحزح عنه قيد شعره... ولا يشارك في مجلسه مخلوقاً... مهما كان حجمه أو موقعه... فتوقفوا... توقفوا... ولا

تتناطحوا... ولا تتقاتلوا من اجله، على هذا النحو الوحشي الشرس. فأنتم في النهاية لستم بشراً... كي تخلو قلوبكم من الرحمة... الى هذا الحد المريع... ولا تشفقوا على بعضكم البعض... ولا ترأفوا بحال بعضكم البعض وتستحيل أرواحكم الى احجار وصخور... مجرد أحجار وصخور، خالية حتى من عاطفة الحجر أزاء الحجر... من تعاطف الصخرة مع الصخرة. بحدة وانفعال شديدين... وتأثر بالغ... أصرخ بهم:

"توقفوا... هيا... هيا... توقفوا... توقفوا... يا هؤلاء..."

وأضيف مهدداً... وإلاّ... وإلاّ... ثم لا ألبث ان ابتلع بقايا تهديدي... ويخفت صوتي حد الإختناق في جوفي... وهو يتحول الى سؤال منطقي... وإلاّ... وإلاّ...ماذا؟ ماذا بوسعي ان افعل ان لم يتوقفوا... واطلق صفير استهزاء واستخفاف بتهديدي... وبنفسي ايضاً... واتساءل مجدداً... ماذا بوسعي ان افعل... أنا... العاجز عن حماية نفسي من زحف المجهول المرتقب عليّ في أية لحظة... ويلذّ لي الصفير... فاتبعه بآخر... وآخر... وبغتة اقرر: "سيتوقف"

اجسّد كل ما اتمنى وارجو وآمُل في "سيتوقف". أقولها بيقين غريب... واكررها بيقين أشد... ولكن سرعان ماأمقت يقيني الغبي هذا الذي لاينطلق ولايستند على أية ركيزة من علم أو معرفة يمكن ان تمنحه قدراً من الصواب... وتعطيني الحق... في الجهر به والإعلان عنه... بهذا الشكل المجاني... الذي بات يلوّن كل شيء حولي.

بحثاً عن... أو خلقاً... أو حتى اختلاقاً لركيزة... مستند... دليل... ينتشل يقيني من مجانيته... افرّق نظراتي هنا وهناك... ازرعها في كل مكان يقع تحتها... وإذ تعلق بجسر يتراءى لي من بعيد، يتسلل اليّ خيط من السعادة... وأخيراً قد تحقق لأمنيتي مايرفعها الى درجة الواقع... اعززها على الفور بالقول، سيصطدم بالجسر. ويتوقف، الجسر واطئ... لايعلو عن الأرض أكثر من مترين، بينما النهر يعلو ويرتفع... يرتفع ويعلو... وبما أن الغني لايدخل ملكوت الله... إلا إذ عبر من ثقب الابرة... كما يقول السيد المسيح، وان الجمل لايعبر خرم الابرة... كما يقول المثل المعروف، فان هذا السيل الحجري العرم، لايمكن ان يعبر من تحت هذا الجسر ذي الفتحات الضيقة القليلة، المتوجة

باقواس واطئة... اشبه باقواس المساجد الصغيرة. ولكن هل سيصمد الجسر نفسه، هل سيصمد هذا البناء الضئيل المتهريء أمام سيل الأحجار المتدفق؟ ويثور في نفسي جواب حزين، سيهدمه، ويكسبه الى جانبه، محيلاً إياه قوة اضافية... مضافة الى قوته الشيطانية العارمة، مثلما يفعل السرطان... حين يستوطن جسداً ما... مثيراً حرباً طاحنة بين خلايا الجسد نفسها... مشعلاً فتنة نذلة بين صفوفها... محيلاً بعضها ضد البعض الآخر دون هوادة... وإذا ماصادف وعجز عن تهديمه فسوف يمتطيه ويواصل سيره العدواني... اللاأخلاقي... ولكن السيل يتوقف... آه... لقد توقف السيل حيث تماسه مع الجسر... تماماً مثلما توقعت ورجوت. ومع ان نتيجة كهذه من شأنها أن تشحنني بفرح غامر... إذ انها توجت توقعاتي وصدق حدسي... إلا ان موجة من الغم... تعصف بي مثيرةً الخوف الذي ساورني منذ قليل... وتمكن مني... وعشعش في داخلي... من ان النهر سيمتلئ بالمياه، عفواً، بالأحجار... ويقبض على الجانبين ويغطي الشارع البائس صعوداً... حتى يبلغ القلعة ويجرفني معه ولاأعود... بعد ذلك سوى مضغة في أفواه هؤلاء المدعوين. الى وليمتهم الشاذة، المتسارعين نحوها... بقوة وعزم دونهما قوة وعزم أبي... الذي باع دارتنا الوحيدة، وإشترى بثمنها المنقوع بعرقنا ودمنا... زيارة الى بيت الله الحرام... قبل بضعة أعوام... ملقياً بنا في العراء... ملفوفين بالجوع والبرد والتشرد، دون ان يحفل بمصير أيّ منا...

تراجعت الى الوراء، هلعاً... فما وجدت شيئاً الوذ به، اندفعت الى الأمام... نحو بوابة القلعة العملاقة، آملاً أن أتسلقها وأبلغ قمتها... متذكراً سيدنا نوح الذي صنع على وجه السرعة. سفينته لينقذ نفسه واهله من الطوفان وأهواله التي عمت الكون.

بذلك، بذلك فقط. اقول لنفسي بإيمان قوي، يكون بوسعي أن أمنح حياتي التي تسيل من مسامات جلدي وسائر فتحاته الأخرى، ويكاد هيكلي الآدمي يفرغ منها، بضع ساعات أو حتى دقائق اضافية... قد يتمخض عنها، أو خلالها، حل معقول للكارثة التي تحدق بي من كل حدب وصوب بعيون ملؤها التصميم على الفتك، فألهث نحو البوابة... ولكن أصابعي تنزلق عنها

فالعمود الرخامي الذي تستند عليه، أملس صقيل، كصفيحة من زجاج مبلول بالزيت... لاتثبت عليها حتى النملة... فكيف بي أنا... أنا الذي أزن، بالرغم من هزالي ونحولي، آلافاً مؤلفة من النمل.

لا بد من أحد يعينني، فالسيد نوح لم يبني سفينته البدائية المضعضعة وحده. ولكن مَن؟ مَن يعينني... فأنا لاأرى مخلوقاً من مخلوقات الله، عدا الأحجار. لأجمع بضعة أحجار... أحجار كبيرة ضخمة، أكوّمها فوق البعض... بشكل متدرج، لعلي أبلغ فتحة البوابة، غير أنّ الأحجار هي الأخرى، ملساء... لأثبّت أحدها فوق الآخر... فكيف السبيل؟ آه... أين السبيل... لو أعثر على حجر مدبب من النوع الذي كان جدي الأكبر يستخدمه في الحصول على قوته اليومي... والدفاع عن نفسه، ازاء أحداثه، فأحفر في العمود يضع حفر أو ثقوب... تكفي لأصابع قدمي وحسب... ولكن أين هو الحجر المدبب هذا... كل الأحجار مدوّرة... مكوّرة على نفسها، مثل كرات زجاجية.

في لحظة غضب عارم يتلبسني... بفعل اليأس الذي يحتويني... أنهال على الكرات ركلاً بالأقدام وسحقاً... وضرباً بالأيدي، فيتطاير بعضها كما تتطاير الورود الشوكية... المحمولة على سيقان القلغان ... ولكن شظايا الزجاج تلمس قدمي... وتتساقط فوق رأسي... كنتف من الثلج... أو من القطن المندوف... وقبلما ألحس بقايا دهشتي... واستوعب هذه الحالة الغريبة... حيث قطع الحجر... تتحول الى شظايا زجاج... لتستحيل هي بدورها الى قطع من الثلج المفتت... أو نتف من القطن... تتغير الحالة، أو بالأحرى... الحالات كلها... الى حالة جديدة... أشد غرابة وإثارة للدهشة الصاعقة... إذ يستحيل كلها الى قطع من نقود... نقود... نقود ... نقود معدنية. نقود فضية... نقود ذهبية... نقود رصاصية. نقود حجرية... تنهال على يافوخي من ثقوب في السماء... لاعدّ لها ولاحصر... ولاتلبث ان تحيط بي من كل جانب... فاشعر بنفسي غارقاً في بحر لجبٍّ... صاخب من المياه النقودية... تتقاذفني أمواجه... حتى تكاد تجرفني... فألوذ بجرف صخري مختبئاً، واترك المياه الذهبية والفضية تجري وحدها، حريصاً ان لاأدعها تمسني ناهيك ان تعلق بي قطرة واحدة منها... الى مستقرها الأخير... في جحيم العالم السفلي... يطفي خريرها الخشن، أو بالأحرى،

خرخشتها واصوات احتكاكها ببعضها البعض، على قهقاتي... التي أجاهد لإطلاقها على إثرها... ولكنها تختنق في صدري... قبلما تبلغ حنجرتي المتيبسة... كقصبة ممتلئة بنشارة الخشب... فأندب حظي العاثر... إذ يتضاعف جهلي... بمصيري المجهول.

و... فجأة... وما أكثر المفاجآت... وما أوجعها على النفس... تتغير احوال احجار النهر... مثلما تغيرت احوال احجار القلعة، بتغيرها... هي أو يغيرها لها أحد ما كما يغيّر الممثلون على خشبة المسرح، ملابسهم، أو يغيّرها لهم أحد إذ تتغيّر أدوارهم، تغدو الأحجار... اشياء أخرى ولا تشبه الأحجار من بعيد أو قريب، لا في بناها الداخلية ولا في أشكالها الخارجية... انها تشبه الى حد كبير مجموعة من الخرفان... ترتدي أردية صوفية بيضاء نظيفة... مغسولة بعناية شديدة وأهتمام فائق، تتراكض على أربع قوائم... ترتقي الجسر... تعبره الى الجانب الآخر... مؤديه المهمة التي عجزت الأحجار عن تأديتها... أو مكملة الدور الذي لم تكمله الأحجار، وفقاً للدور المرسوم لكل منهما... قطعان عديدة تتسابق مع بعضها... كما كانت اصولها الأحجار تفعل، وهي تزيد سباقها عنفاً ماتستطيع... كي تزيد إنتماءها الى روح العصر الدموية... فتروح تتناطح في سبيل بضع سنتمرات من المكان... والويل كل الويل لخروف يتلكأ، بسبب كونه طفلاً صغيراً رضيعاً... أو شيخاً مهندماً ضعيفاً. أو لعناد في طبعه وتمرد في سلوكه... إذ سرعان ما يصبح هدفاً لطعنات الحراب الحادة كالمدي، التي تحمله الخرفان في رؤوسها... وإذذاك يغدو الخروف المسكين بين أمرين لاثالث لهما؛ إما أن ينهض على قدميه، عفواً على قوائمه الأربع، متحاملاً على نفسه ومتحمّلاً جروحه، مستمداً منها قوة ما... مثل قوة المقبل على الموت تواتيه فرصة غير متوقعة لحياة إضافية لم تكن في الحسبان... فيطلق قوائمه للريح... أو أن يتلقى طعنات وطعنات أخرى وأخرى ويصطبغ رداؤه النظيف بالدم... ويسقط على الأرض مسحوقاً مُداساً... طريقاً وحيداً مطروقاً لسائر الخرفان... وبعد ثوان وحسب، يمحى أثره تماماً... ولا يبقى من دليل يدل على وجوده الذي كان متحققاً ذات يوم... ولا من إشارة تشير الى الجريمة التي وقعت في وضح النهار... أمام عيون الخلق كلهم... سوى أحذية حمراء ينتعلها إخوته الآخرون... من الخرفان الآخرين الذين سرعان مايبدّلونها بأحذية أخرى

باللون نفسه... ولكن بدمٍ أكثر طراوة وقانيّة... إذا ماتوقف أخٌ آخر له في مكان آخر... من المسيرة الجماعية القطيعية... التي من شروط ديمومتها وأسباب إستمرارها ضرورة ان لايشذ عنها احد... ولا يخرج أو يتلكأ أحد... في الايمان بها... والرضا التام عنها....

من بعيد ألمح... كبشاً غريب الهيئة... شاذ الخلقة... متوجاً بقرنين... اشبه بحسامين يقطران دماً... يصعد ظهور الخرفان... كما لو كانت جسراً معبداً له... كاشفاً، بتعمد، أو زهو، عن أرجل مصبوغة من بدايتها الى نهايتها بالدم. وهو يثغو بعواء متقطع... ويشير بظلفه الذي يسيل دماً... الى جسد خروف ممزق... كأن مجموعة ذئاب غادرته للتو... ويقول بكلام فصيح... هذا عقابي... ابسط عقاب واكثره رحمة... انزله بكل من يخرج على الإجماع الخروفي في عالمي الجديد... هيا... هيا... اسرعوا ولا تتوقفوا...

أصرخ من مكاني، فيتغلغل ثغائي في ثنايا نبرات صوت الكبش الصارخ، القوي، الواضح... أسرعوا... أسرعوا... اسر...

انتبه لنفسي مصعوقاً... ماهذا ؟ ماالذي يحدث لي...؟ هل... بتُّ، اخر عمري، كهفاً يردد صدى اوامر الكبش، وتعليماته الكبشية. وأجيب على نفسي بسرعة، ولم لا...؟ أن وجهة نظر الكبش في المسألة المطروحة على بساط البحث، أعني بساط الواقع والتنفيذ صحيحه جداً... وسالمة مائة في المائة... لايثلمها ولا يعيبها شيء. وما دام الأمر كذلك... فلماذا لاأؤيده... وأضم صوتي الى صوته، أقصد الى ثغائه... واسير خلفه، أنا وعشيرتي، التي لاأعرف منها أحداً، وأهتف له... وأصفق أيضاً... حتى تدمى كفاي... فالأكف التي تصفق طويلاً هي التي يعيش اصحابها طويلاً ورغداً... ثم... ثم... اني إذ أعلن عن تاييدي المطلق أو المقيد له... لا أنطلق من خوف منه... أو من ضرر يمكن أن يصيبني... وإنما... إشفاقاً ورأفة... بحال هذه المخلوقات البائسة النظيفة، التي لاحول لها ولا قوة... يسوقها قدر غاشم عاتٍ... ويقودها الى مجاهل مجهول... لايعرف مدياتها... حتى القدر القائد نفسه، ولكنه في كل الأحوال، وفي أسوأ الإحتمالات والتوقعات... أرحم من تلكؤها... وتوقفها عن المسيرة الكبشية... الهادرة... مشكلاً بذلك عقبة كأداء أمام جريان المياه،

الخرفان... وجعلها... إذ ذاك تفيض على ضفتي النهر... وتغطي الشارع المجدور وتصل قلعه آرابخا... أعلى موضع في القلعة... حيث أقف... كما كان سيدنا نوح... في سفينته... يقف فوق اعلى قمة من قمم جبل زاگروس... هيا... اخوتي... هيا... اسمعوا... نصيحتي ولا تتوقفوا... اسرعوا الى الأمام... الى الأمام... بلا تراجع ولا توقف. ففي توقفكم، مجرد توقفكم، هلاككم المؤكد... وهلاكي المتوقع، فارحموني... ارحموني... ولا تضيعوني مثلما ضيعني أبي... والقى بي، بلا رحمة ولا شفقة، في دنيا الضياع ومتاهاته الخانقة... ويضيع ثغائي، في خضم خرير الخرفان الصاخب، الذي يصمّ الآذان ويغلق كل فتحاتها...

أجل... أجل... خرير... خرير... لا... لا... ليس ثغاءً ذلك الصوت، أو تلك الأصوات المتناغمة الموسقة التي تطلقها حناجر الخرفان والأكباش. أنا من سلالة فلاحية رعويه... ما زال دموزي الراعي العاشق يسكنني ويتنفس تحت جلدي، أميز ثغاء الخرفان من بين ملايين الأصوات... بل بوسعي أن أميز ثغاء الخروف عن ثغاء النعجة... بنفس القوة التي أميز بها تساقط مياه شلال بيخال أو گلي علي بيك. عن خرير نهر جار... فبالرغم من إمتلاء كلّ كياني بأصوات تساقط المياه من الجبال وقممها الشمّاء... ما زلت قادراً... على التعرف بوضوح ودقة على الأنغام التي يعزفها نهر خاصة... وتمييزها عن تلك التي يعزفها نهر سيروان أو يتغنى بها الفرات... أو دجلة... أو الخابور... أو الزاب...

ولكن هذا الخرير، خرير الخرفان هذا، إذ اصغي اليه بانتباه يبدو خريراً غريباً، على مسمعي، في مخارجه الصوتية، وفي مواقع الاستماع ومواضعه التي يختارها، داخل أذني أولاً... ثم متجاوزة إياها حتى تشمل الجسم كله، فيهتز كل مافيه من أوتار قابلة للإهتزاز وترديد الصدى داخل الهيكل العظمي المكتسي بطبقات خفيفة من اللحم والشحم، والمنطوي على قدر ما من المشاعر والأحاسيس، ربما بقصد امتصاصها، ودفنها، ومنع امتدادها الى كائنات أخرى ومخلوقات مختلفة، قد تبنى بينها وبينهم... جسور تفاهم وتعاطف، تعبر فوقها، قوى مساندة تنتصر لها، وتدفع الظلم عنها، ولعل غرابة هذا الخرير تكمن في كونه شبيهاً بذلك النوع من نداءات الإستغاثة التي

تطلقها السفن والبواخر، الآمنة المسالمة الموشكة على الغرق قبلما تغرق، شفرات خاصة لايملك القدرة على فك ألغازها وفهم مراميها، إلاّ أناس محدودون، لايشكلون في مجموعهم، خطراً كبيراً، على الأمور ومساراتها العادية... ومتعهدي الحفاظ على استمراريتها وديمومتها. لهذا السبب، لايحفلون بها كثيراً ويدعونها تنطلق على هواها وهوى اصحابها المخدوعين، حسني النية... طيبي السريرة الذين تبلغ بهم السذاجة حد التصور... بانه ما زال في هذا العالم... احد... يمكن أن يغيث أحداً ويهبّ لنجدته....

تقطع النداء... سكاكين ألم... فتفوح رائحة الدم... توشك أن تخنقني... تملأني بالغثيان... فاتجشأ... وأتقيأ... ولا يخرج من جوفي غير الهواء... فاروح أدور حول نفسي وأدور... لعلي أجد، مهرباً... منفذاً... ثقباً... ألوذ به... أدخله بكل جسمي، ولا تدخله الرائحة الكريهة... ولكن بلا جدوى... فالرائحة مبثوثة في تلافيف الهواء وفي ثقوب الأرض والسماء... وبيأس شديد يتشعب في داخلي، يستقي من الينابيع التي لاتشح مياهها... أتوقف عن الدوران حول نفسي، وفي الوقت نفسه أمنع عيني من جولا تهما العبثية... اللامجدية هنا... وهناك، بحثاً عن بارقة أمل في الخلاص. وأجمد في مكاني... بانتظار مصير محتوم أكيد... أجهل تفاصيله تتجسد كل مشاعري ازاءه في بضع كلمات... تتسلل من تلقاء نفسها... ليكن مايكون... وليحدث ما يحدث... ماذا بوسعي أن أفعل، على أية حال، ومتى كان بوسعي فعل شيء... أي شيء إزاء جبروت الأشياء وطغيانها المدّمر للروح والأمل؟... استسلم للامبالاة صقيعية قاتلة... ولكني إذا كنت امتلك بعض القدرة على جسمي وعيني وأفكاري المنفلتة وأنجح، بعض الوقت، في تجميدها... في الحالة الصقعية التي اخلقها لها. فاني وكما اثبتت الوقائع فيما بعد... لاأملك أية قدرة على أذني وأراني عاجزاً تماماً... عن تحويل ارادتي الى قطعتي فلين أو كمية من القطن... احشوها فيهما... حاجزاً... أمام الأصوات التي تقتحمهما... وتستقر في الأعماق... في النخاع اصوات شتى... هابّة من امكنة شتى... تطغى على خرير الخرفان... بل أن الخرير نفسه، أراه... قد غير أنغامه ونبراته... أو إستعار أنغاماً ونبرات... وأصواتاً... غريبة عنه... عواء... نهيق... مواء... نقيق... خوار... انين... بكاء... عويل... شهيق زفير... الخ... الخ... تتخللها أصوات أخرى... لا

أعرف لها أسماء ولا مسميات... كأن المدينة برمتها قد استحالت الى غابة، شديدة التنوع في مكانها وقاطنيها... أو أن غابة مليئة بكل أنواع الحيوان قد سكنت المدينة، بغتة، وألغت وجودها تماماً... وهي تعلن عن حضورها الطاغي، عبر تلك الأصوات، المتنافرة... الشاذة المتناقضة... التي يستحيل تواجدها في آن واحد، فوق بقعة واحدة.

تتجمع عندي، دفعة واحدة، كل مشاعر الإحباط واليأس والرعب والعجز، ممتزجة برغبة عارمة في الحياة، في ان أحيا وأعيش، وأن لا أنتهي بهذا الشكل البائس، ضحية مجانية، للأصوات المهاجمة، بهذا الشكل الوحشي المقيت، فتتبلور كل طموحاتي في التشبث بالحياة بالرغم من تعاستها، في محاولة اخرى... عزوم لتسلق البوابة، الأمل الوحيد، والطريق الأوحد للخلاص ولكن البوابة لاتزال كما كانت، ملساء تفشل حتى الذبابة في تسلقها والتعلق بها... بل اشعر بها كأنها زادت عما كانت عليه من قبل... كما لو أن أحداً قد طلاها... بزيوت ونفوط الدنيا من جديد... ومع هذا أصمم على التشبث بها، مثلما يتشبث المشنوق بحبل مشنقته، الذي سيلتف على رقبته. وهل يتشبث المشنوق يا ترى، بحبل مشنقته؟ وما أدراني أنا... فأنا لم يسبق لي أن شنقت مرة واحدة، ولا شاهدت أو سمحت لنفسي بأن أشاهد أحداً... يُشنق. وأمل أن لا أشنق... ولا أرى أحداً في حالة شنق... أبداً... ومع هذا فمن يدري... ما دمت أحيا في زمن... يؤرشف الأمل... كأثر تأريخي عتيق... أو يحنّطه... ويرمي به في متاحف المخلوقات المنقرضة جنباً الى جنب، مع هياكل الديناصورات... والماموثات... ويضعه فقرة اساسية من فقرات برامج الزيارات الرسمية وغير الرسمية....

يبث تشبثي بالبوابة، بوابة كرخا بيت سلوخا التأريخية العريقة... المتجذرة في أعماق الزمن، في نفسي وقفة إحساس بالأمان... فأن تحتضن وجوداً ضخماً بهذا القدر من الضخامة والصلابة... وأنت ذلك الكائن الهش الضعيف، مثل ريشة في مهب الزوابع... أمر يمنحك، أو يمنحني أنا على الأقل، ولا شأن لي بك أو بالآخرين... شعوراً بالإطمئنان الروحي. يزرع الثقة بالنفس... ويوطد الأمل في ما بعد الآن... أقصد في الآتي من الأيام... والمقبل من الزمان...

والقادم من الليل والنهار. أملاً في أن تلتقي نفسي نفسي... أن تعانق كفّي كفي... أن تلامس أناملي أناملي... فتذهب عني الوحشة... ويغادرني الإحساس بالوحدة والعزلة... امدّ من طول ذراعي حول البوابة ماأستطيع، وأدخل البوابة الصلدة، بكلّى حتى تشرع عظام صدري تطقطق ولكن بلا جدوى... ولو ربطت بكل ذراع من ذراعيّ القصيرتين خمسين ذراعاً أخرى لما لمست نفسي نفسي... لما شعرت نفسي بنفسي، في هذه المتاهة التي تخلقها البوابة... بين بعضي وبعضي ومع هذا اشعر كأن البوابة تهتز بين ذراعي... هل يعقل هذا؟ احرّك بوابة بذلك القدر الهائل من الضخامة والمتانة والثقل؟ لا... لا... مستحيل... مستحيل... إنه أنا... أنا الذي ما زلت أرتجف وأرتعد... والرجفة التي تسري في كل كياني، والرعدة التي تجري في كل عروقي، هما اللتان تخدعانني وتصوران لي كأن البوابة ترتجف... وهي التي لم تهتز حتى... أمام قوة عواصف الزمان العاتية... وزوابعه الهائجة... ولكن... ولكن... ترتجف بالفعل... ان هذه الكتلة الضخمة من الصخر الزجاجي... الأملس... أو من الزجاج الحديدي الصقيل، ترتجف تهتز... تتحرك....

أشعر بأصابع عديدة تدغدغ ظهري... تحك جلدي من مواضع كثيرة... ألتفت فاذا بمجموعة من الأذرع تلتف حولي... كأنها أذرع اخطبوط غير مرئي... أبذل المستحيل للفكاك منها والتخلص من دبق إلتصاقها... ولكن الأذرع الهلامية، التي يستحيل تقدير عددها... تتداخل وتنجدل... على شكل حبل متين طويل يلتف حولي... بل أن البوابة نفسها قد غيرت نفسها وإتخذت شكل بقرة ... ضخمة هائلة الضخامة... لم تقع عين على مثيل لها... وما بدا لي حبلاً... إنما هو ذيلها، الذي يواصل إلتفافه حول جسمي... بشدة وقوة يتناميان بإستمرار... يعصر لحمي... حتى يوشك أن يمزق أنسجته... وينفذ الى عظامي.

ألتفت يمنة ويسرى... بحثاً عن كائن ما... مخلوق ما... يعينني ويخلصني من هذا الذيل الرهيب... ولكن ليس ثمة أحد... لاأحد البتة. حتى البيوت الزجاجية المكشوفة احشاؤها للرائي، قد تغيرت وإتخذت هيئات وأشكالاً... غريبة....

شرعت البوابة تخور... ثم لاتلبث أن تسعل وتعطس عطسة عظيمة تتدفق

من خياشيمها... نافورات ماء اسود، اشبه بالقار السائل أو النفط الأسود... ثم تروح البقرة... تمطي جسمها المتهدل... وما هي إلاّ هنيهة... حتى ينبت لها جناحان... وتتخذ هيئة الثور الآشوري المجنح... ولكي أتاكد من صحة ماأرى وأحكم على مدى واقعيته... أتلمّس كتل اللحم المتدلية من البطن... ولدهشتي أصرخ... إنها أثداء... أعني ضروع... آه... يا إلهي من شاهد ثوراً بضروع...؟

يجرني الذيل الملتف حولي... يرفعني عن الأرض... ثم يحطّني أمام عينين... تبدوان كبحيرتي دم... فيهما خلق كثير أو... بالأحرى أشلاء خلق كثير... رؤوس مقطوعة... قطع من الكبد ممضوغة... قلوب مفتّتة... جماجم مهشمة... عيون مقلوعة... أيدٍ مقصوصة... أرجل مخلوعة... الخ... الخ...كما أرى بوضوح الى جانب الأشلاء والأجزاء البشرية المقطعة... مخلوقات، بأشكال وهيئات غير مألوفة... تحدث صخباً وضجيجاً كبيرين. كما لو انها في حفلة رقص وغناء وأنس وطرب....

تُخرج البقرة الثورية، أو الثور البقري... من فكيها الهائلتين بساطاً... منسوجاً من صوف خشن... مبلولاً بسائل دبق... يملأني بالغثيان... حين تبدأ تمسح به وجهي... فتتدفق الدماء من وجهي إذ يتمزق الجلد الرقيق الذي يغطيه... تماماً كما كان يحدث، حين كانت أمي، في حمام النساء... تحك قدميّ بحجر أسود تغربله الثقوب... وتكسبه خشونة فظيعة، لاقبل لأحدٍ بتحمل جولا ته العدوانية العنيفة فوق الجلد الرقيق، ربما يكون الحيوان بالرغم من كونه حيواناً... بل بسبب كونه حيواناً، قد رآني بحال وجهي وجلده المدمى... فكفّ عن مسحه بلسانه المبردي الشرس... وأخذ يضرب على ظهري ضربات خفيفة، تنشد المودة وكسب الثقة، وعرض مشروع صداقة وألفة، أكثر من كونها قاصدةً الأذى... ثم تحلق بي البقرة، عالياً... عالياً... وما هي إلاّ ثوان حتى تهبّ عاصفة شديدة، أرى القلعة برمتها، تتهاوى على نفسها... كما لو كانت بناء من خشب، إستوطنته الإرضة منذ زمن طويل. تنهار الجدران الصخرية الزجاجية... وتتساقط البيوت على بعضها. غير أن كتل الحديد والصخر والإسمنت، سرعان ما تتغير احوالها... وتستحيل الى كائنات متحركة... ترتدي أردية من الصوف المصبوغ بالدم... تختال تحت أنوار نيران باباگرگر...

التي توشح المدينة.

إذن فقد صدق حدسي المشؤوم... وفاض النهر... نهر الخرفان الصخور المياه... وغطى الشارع المجدور المرقع. وبلغ قمة القلعة... قلعة آرابخا... حيث كنت أقف... متوهماً... أو متأملاً... ان توفر لي بعض الأمان... من فيضان النهر... وغضب أبسو....

أشعر بإمتنان كبير... لهذه البقرة، التي أرى فيها رسولة العناية الإلهية... بعثها إليّ الإله تموز... حباً بي... لتنقذني من ذلك المصير الأسود... الذي كان يلوح لي، وقد جاءتني في الوقت المناسب... المناسب تماماً.

أبحث عن وسيلة للتعبير عن شكري وامتناني لها... فلا أملك غير ان ألثم بخشوع... الحبل الذي يغلّني... أعني الذيل الذي يلتف حول صدري... تخرج لي البقرة لسانها... إستجابة منها لشكري إياها... تضعه قبالة عيني تماماً، فأرى أمامي سبورة سوداء... كتلك التي كانت تصفع وجوهنا كل صباح، حين كنا تلاميذ ... صغاراً... وتقول لي دون ان تسحب لسانها الى جوفها، أو حتى تحركه اية حركة بنبرة واضحة، ولغة مفهومة... جداً:

إقرأ... فأتساءل متلعثماً... و... و... ماذا أقرأ... ليس على السبورة ما يُقرأ... فتكتفي بترديد. ما قالته، ولكن بصيغة أمر، هذه المرة، أقوى:

إقرأ... إقرأ...

فأمعن النظر في السبورة، من جديد. وألمح نقوشاً ورسوماً ورموزاً لاأظن البشرية كلها، عرفت أو شاهدت لها مثيلاً، منذ الخليقة وحتى غدٍ قريب... فأصرخ بإحساس عارم باليأس والعجز... لاأستطيع القراءة... لا أستطيع قراءة هذه اللغة الغريبة... ولا فكَّ الغازها. تبتسم البقرة... وتهدئ من روعي بأبتسامتها تلك وتقول، نبرة لينة...

أنا أقرأ... اسمعني...

فاستحيل كلّي اذاناً مفتوحة... يشرفنا حضوركم الحفلة المقامة على شرفكم... وبحضوركم تتم لنا الأفراح... ويتحقق الإنشراح... حفلة؟ أية حفلة؟

أتساءل برعب، أهي تلك الوليمة التي كانت الأحجار تسعى لها... ساحقة،

في التنافس والتسابق اليها، بعضها البعض؟

وقبلما... تتشكل أية إجابة في ذهني... تطير بي الغولة أعلى وأعلى... دون أن تحفل... برأيي في موضوع الدعوة...

تحين مني إلتفافة الى القلعة، التي لايزال حنيني يشدني اليه... بالرغم من تحولها الى أكوام من الحجارة... ودخولها بحكم ذلك... الى دهاليز التاريخ ومتاهاته... كأثر من الآثار التي تدلل على بشر ما كانوا هنا... ذات يوم... فأرى الأغنام قد إستحالت الى كتل لحمية تشبه الخنازير... خنازير برية بدينة قذرة، في غاية القذارة والقبح... ترعى اشجار الزيتون والجوز وكروم العنب والبلوط...أو بالأحرى تفترسها وتسحقها سحقاً محيلة المكان... الى صحراء قاحلة، إلاّ من الأشواك والعاگول والخرنوب والصبير... وأرى الناس من عليائي... أشبه بحشرات صغيرة جداً، متناهية في الصغر، تدب على أرجل خيطية رفيعة. ربما أبدو لهم، أنا الآخر، حشرة صغيرة، تطير بها... نحو المجهول حشرة... كبرى... وثم... و...

وفجأة... وما أندر المفاجآت... وما... و... و...

محاولة إقتناص حلم

حشد من المخلوقات، رجال ونساء، شيوخ وشباب، وجوه بشرية واضحة الملامح. وجوه غير بشرية واضحة هي الأخرى، في لابشريتها. جمع هائل من الناس، هائج، مائج، متلاطم يندفع نحو شيء لامرئي. يتدفق من أمكنة عدة... يسيل من مصبّات شتى. سؤال لحوح يسيطر على ذهني، ويفرض نفسه بقوته على اهتمامي، ترى أهي الكائنات الغريبة نفسها التي تغزوني، كلما أغمضت عينيّ. وتلاحقني كدائن شحيح، كلما فتحتهما. وهي تتلون وتتغير، فتتراءى في صورة جديدة، في هيئة متصلبة... كائنات حجرية وصخرية متدحرجة، حيناً، وفي هيئة جراجة... مخلوقات حيوانية، خروفية وبقرية وحتى خنزيرية... أحياناً أخرى. دون أن تستقر على حال، إذ سرعان ما تبدل حالها من حال الى حال... ومنها الى أحوال وأحوال... متباينة، مختلفة، لاحصر لها، وغير ذات علاقة بأصولها وجذورها... بل وغير ذات وشيجة ببعضها البعض. الوجوه التي تسعفني عيناي في التطلع اليها، ومن ثم التمعن فيها وتبين معالمها، تبدو لي وجوهاً إنسانية، أعني آدمية بشرية، ذات علامات مألوفة، تحمل، في بعض تفاصيلها على الأطمئنان. الأمر الذي يشحنني... بقدر غير متوقع من الشجاعة والجرأة، فأندس بين الجمع، أشق لي، خلاله، طريقاً بصعوبة جمّة. وأجاهد في سبيل الثبات فوق المساحة الضيقة التي إنتزعتها قدماي من أقدام أخرى. زحزحت جذوع أصحابها عن مواضعها... ولكني عبثاً أحاول أن أتوتد حيث أقف. أنّى لقطرة ماء أن تثبت أو تقف في خضم موج عات يعدو. فأندفع مع الموج وأعدو. وأتوقف، إذ يتوقف، رغماً عني.

يخطف نظري ويستحوذ على كل أهتمامي، بقوة وإصرار، شاب هزيل، غاية في الضعف والهزال. شاحب الوجه أصفره، بارز عظام الوجنتين غائر العينين، إن كان لابُدَّ أن نسميّ ذلكما الثقبين العميقين الضيقين، عينين. يتقدمهما،

حتى يكاد يغطيهما، أنف ذو فتحتين واسعتين، يبرز منهما شعر كثيف... أشبه بالصوف يتهدل فوق شفتين يابستين متشققتين. تبدوان كضلفتي باب، لم تتذوقا الدهان أو الزيت منذ زمن طويل، تطبقان على جوف فم هجرته. أسنانه.

لا أدري لماذا منحتني رؤيته إنطباعاً بأنه شاب دون الثلاثين. مع أن كل مافيه يصرخ نافياً ذلك، ويقول بكلام واضح مبين لالبس فيه ولا غموض بأنه كهل تجاوز الخمسين... من بين الحشد، تنطلق إمرأة عجوز شمطاء، عارية الرأس، شعثاء الشعر تصرخ وتولول بلغة غريبة، لاأعي منها حرفاً واحداً. ربما بسبب تساقط اسنانها، مما يجعل الكلمات تتشلّل من بين أسنانها كسيل متدفق متواصل بلا سدود أو حواجز، تفصل الكلمة عن شقيقها، حيث ينبغي. فيزاحم بعضها بعضاً... ويسابق الحرفُ الحرفَ، ويخرج الكلام كله دفعة واحدة، تهشم الكلمة شقيقتها... ويحطم الحرف شقيقه. كما هي الحال، في حرب طاحنة محتدمة بين مجموعة من الأعداء العقائديين الذين لاسبيل الى تهدئتهم، لبعض الوقت وحسب... ناهيك عن تحقيق سلام دائم، أو حتى شبه دائم بينهم.

أسأل بعضاً من الذين يمرّون بي... إذ يدفعهم الموج الى مقربة مني... أو يجرفني الموج معهم... عن سرّ هذه اللغة الغريبة التي تضع المرأة احشاءها خلالها وتلقيها مفتتة ممزوجة معها، على رؤوس الحاضرين. فيخيب سؤالي إذ لايحظى بأيّ جواب، ويضيع في خضم الإهمال الشديد الذي يلتف حوله من كل جانب. فأكرر السؤال... وأعقبه بآخر... وآخر فلا تعود سائر اسئلتي بأي جواب. بيد أنها تحضر في الوجوه التي تتصدى لها... علامات دهشة بالغة... تقول لي بلغة فصيحة صائتة... يا حمار هل يسأل أحد نفسه عن أسمه. وإذ ذاك أبتلع أسئلتي... كما يبلع الغريق... في قعر البحر... كمية من الطين...

تواصل المرأة العجوز تسللها... خلال الفجوات القليلة الضيقة التي تعثر عليها... أو تشغرها بين الحشد المتراص... كالبنيان المرصوص بانسيابية والتوائية لاتقدر عليهما سوى الأفعى، حتى تبلغ الشاب. فتلقى بنفسها عليه... تحيطه بذراعيها وتمطره قبلاً، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، دون

أن تترك أو تنسى أي موضع من مواضع جسمه الطويل السامق المنتصب كالقصبة. ثم تمدده، بخفة وسرعة، على الأرض. وتقعد لصقه مقرفصة... ترفع رأسه بعناية شديدة، تتأمل وجهه هنهية... ثم تعود تنزل عليه بالقبل... تصليه صلياً متواصلاً... ومن غير ان تبعد عنه الفوهة... التي تطلق القبل المتلاحقة ... ترفع عقيرتها... إذ يتحرر الجسد المسجى من اطلاقاتها، لفترة وجيزة، صارخة مولولة... فتعود اللغة المنكسرة المنهمشة المسحوقة بين لثتيها وشفتيها، التي لم يسكت رنينها، بعد، في أذني... ولم يجف دبقها بين طيات روحي، لتملأ الفضاء ثانية. بيد أني، هذه المرة، أفهم لغتها. لامن خلال كلماتها وأحرفها، التي لاتزال متداخلة، وإنما من الفعل الذي يعقبها، والذي يسرع البعض منهم بممارسته، بوضع إناء (طست) كبير ملئ بالماء، أمامها. فتتناول ذيل ثوبها الأسود الطويل، تغمره في الماء... تخرجه مخضلاً... تعصره على شفتي الشاب المطبقتين... اللتين تأبيان الإنفراج، فيسبح الماء على طرفي شفتيه.

تسري في جسدي أنا، ولا أدري لماذا، قشعريرة، فأرتجف في مكاني، بينما يظل الشاب نفسه جامداً... كقطعة خشب. لاترتعش فيه عضلة واحدة. يتحلق حولهما خلق كثير، في فضول كبير... يشرئبون بأعناقهم، يدخلون عيونهم في الإناء الذي أوشك أن يفرغ من الماء، ثم لايلبثون إذ تستقر نفوسهم المضطربة، أن يسقطوا جميعاً في خشوع تام، مجللين بصمت ثقيل، مقمطين بوجوم صارم، لاتتحرك فيهم سوى العيون القلقة، التي تنتقل بخفة وسرعة الى كل الأمكنة، بحثاً عن المجهول...

ما هؤلاء القوم؟

أتساءل بيني وبين نفسي... وأجيب نفسي بنفسي وأقول... لا شك أنهم مجموعة أناس بدائيين، لم تهبّ عليهم، منذ خلقوا نسمة حضارة واحدة... فخلت حياتهم من تأثيرها... مثلما يخلو... أقول جازماً، قاموسهم من لفظها وسائر اشتقاقاتهما اللغوية ومدلولا تها الإجتماعية، وهم مجتمعون هنا ليمارسوا طقساً من طقوسهم المقدسة، التي تتطلب من جملة ما تتطلب هذا الصمت الشامل الذي لايتحرر من سطوته وجبروته حتى أنفاسهم التي تكاد تختنق داخل جذوعهم المنطوية على نفسها....

داهمت الصمت المخيم، النابت في أرواحهم (هل لهم أرواح حقاً؟) جلبة وضوضاء عظيمتان، تسابقت عيناي للبحث عن مصدرهما، فاذا بهما تستقران بعد رحلة بحث قصيرة، على رجل طويل، طولاً غير معقول. زاد من لامعقولية طوله، نحافته والقلنسوة الخضراء التي تغيب فيها رأسه. أين كان هذا الرجل العجيب؟ وكيف إنبثق هكذا دفعة واحدة؟ أحسبه قد جاء أو جئ به للتو. وإلاّ لكنت قد رايته، فهيئته الغريبة ليست من النوع الذي يمكن أن يدع النظرات تنزلق من عليه بسهولة. بل على الضد... تلتصق به وتتكوم فوقه، رغماً عنه وعنها وعن صاحبها.

رفع الرجل الى السماء، ذراعين عاريين، خرجا من العباءة التي يرتديها... يغطيهما جلد أبيض تشوبه صفرة... تتوزعه شعرات طويلات، تداعبها الرياح الباردة التي شرعت تهبّ بين آونة وأخرى.

عبر الشق الذي خرج منه الذراعان، أبصر بوضوح جسد الرجل... فيصعقني مرآه... إنه عارٍ، عارٍ تماماً... لايغطي جلده عدا العباءة، شيء... أي شيء. وإثر الوقوف على هذه الحقيقة، يستبد بي فضول قوي، ان أتفحص الآخرين وأتمعن في اجسادهم جميعاً، واحداً واحداً، وفي أجسادهن، كلهن، واحدة واحدة، فأخرج بنتيجة ألوم نفسي وأقرعها لإغفالي عنها، بسبب الغفلة، طيلة هذا الوقت، وتدوي في أعماقي صرخة خرساء... تهتز لها جدران جسمي... عراة إنهم عراة... كلهم عراة... لاتغطي اجسادهم سوى عباءات سوداء شفافة... فضفاضة مشقوقة من جانبيها، بدءاً من تحت الإبطين... الى ما يقارب رسغي القدمين. حتى المرأة العجوز الشمطاء، التي ظننت انها ترتدي ثوباً أسود طويلاً... كما ترتدي عادة... النساء المفجوعات في مثل عمرها الآيل نحو الإنطفاء... أراها الآن لاترتدي شيئاً، عدا العباءة التي تغلف جسدها المتآكل.

إنتزعت نظراتي التي ساقتها رغبة مريضة الى مواضع من جسمها المتهري بسرعة. بقدر غير قليل من الندم والتقزز، ورحت أبحث عن أجساد أكثر طراوة وجاذبية. وبعد جولة قصيرة ولكن متأنية على أجساد فتيات جميلات، شابات في عمر الورود. إستقرت عيناي على كرتين صغيرتين، بحجم كفين صغيرتين مغلفتين. تتقدمان صدر شابة في العشرين، فأشعر بهما، بالرغم من

صغرهما، وربما بسبب صغرهما انهما تخلقان فيَّ نشوة عارمة، تعجز الكرة الأرضية برمتها وبكل اتساعها اللانهائي عن خلق مثيل لها، فامرح في فضائها ... وأغوص في أعماقها، أجوب بحر اللذة الإلهية، التي لاحدود لها... ممتطياً موجاً سحرياً، قوياً صلباً. ولكن وقبلما ابلغ مبتغاي... والتقط بشفتي بعض اللالئ المختبئة التي تناديني، تردعني صرخة زاعقة، فيتهشم الموج دون ارادة مني، بين فخذي... وأقفز الى السطح ثانية. مسطح الصمت والأجساد شبه العارية. لأرى ما الذي يجري، فإذا بالرجل الطويل يحرك شفتيه ويتمتم بكلمات غير مفهومة. وإذا بالناس قد غادروا جمودهم... ووجومهم... وراحوا يتطلعون اليه، بعيون ملؤها اللهفة والترقب ويصغون إليه بآذان مفتوحة الى آخرها، تلتقط الهمسة إن مرت بقربها، بنفس الحرص الذي تطبق على الكلمة إذ تسقط فيها، إلا أن الرجل سرعان ما عاد الى وجومه وصحته وجموده. وسرت حاله سريعاً في الآخرين، فاستحالوا جذوع نخل مقطوعة الجذور والسعفات، ولكن العيون، هذه الكرات الزئبقية الصغيرة التي تستحيل السيطرة عليها وجعلها تستقر على حال، شرعت تتحرك بعنف، ذات اليمين واليسار، يحركها القلق تارة، والتوقع الى سبق الواقع وسبر أغوار المجهول تارة أخرى، إلا أن شفتي الرجل الطويل المغلقتين بإحكام، ظلتا مغلقتين بإحكام، ثم وبعد فترة، لا أدري مداها، استجاب الرجل، لضغط العيون وتملقها، وثقل الاسئلة الصامتة اللجوجة التي تنطوي عليها، فرفع يده الى الأعلى، ورسم حركات هلامية، أشبه بدوائر غير متكاملة، يمكن ان تعني ايّ شيء وتدل على أي شيء. وتأمر بايّ فعل إلاّ ذلك الفعل الذي راح الجميع... يمارسه، إذ سقطوا على وجوههم ساجدين. وظل هو وحده... عموداً مغروساً في أرض صحراوية... ذرات رمالها اناس... ساجدون.

أخذت الرياح تلعب بفضل عباءته السائبة. وراحت شفتاه، أو بالأحرى فكاه. يلوكان كلمات مختنقة... ثم تقذفان بها، في مستنقع راكد... مياهه... أناس ساكتون... صفحته ساكنة، لاتخدشها سوى همهمات المرأة العجوز التي لم تنقطع... ووجيف قلبها المضطرب ودقاته المتتابعة التي باتت تسمع. تقدم الرجل العجوز من الشاب المريض وحمله على ذراعيه، مثلما... يُحمل عود مجوّف. رفعه الى الأعلى. بأقصى ما يستطيع. فنهض الجميع... وقد

استطالت اعناقهم، يرنون اليه. ثم مضغ بضع كلمات اخرى وتفلها عليهم، فخرّ الجميع... خاشعين... دفنوا وجوههم في التراب، بينما جلس هو القرفصاء ممداً الشاب على فخذيه، أشار اليّ رجل من الراقدين، يبدو انه لمحني بطرف عينه وهو راقد... أو لمحني قبلما يرقد واقفاً... ثم تأكد من حالي بأني لاأزال واقفاً... أشار اليّ... أن أرقد مثلهم، أن أمرغ وجهي في التراب مثلهم.

لم أستجب لطلبه، تظاهرت بأني لاأفهم اشارته الخرساء، فشدّني من ذيل سروالي الطويل بغضب، مشيراً الى الحشد الراقد الممرغ وجهه في التراب. رفضت بإصرار أن أتحول الى واحد منهم، مشيراً الى الرجل الطويل، الذي عاد في هذه اللحظة بالذات، منتصباً على قدميه... تاركاً المريض ممداً على ظهره فوق الأرض... وقلت بلغتي الخاصة مع يقيني الجازم، إنه لايفهم حرفاً واحداً من لغتي، مثلما لاأفهم أنا حرفاً أو حتى نصف حرف، من لغته ولغة قومه:

- سأبقى واقفاً مثله.

ولدهشتي البالغة، أجابني باللغة نفسها، لابسة نبرة غريبة، مسحوقة تحت اسنانه المطبقة:

- هو... شيء... آخر.

أجبت مسيطراً على دهشتي، وبلا أنفعال:

- أنا الآخر... شيء آخر.

إمتد... وانطلقت، من بين فتحات اسنانه، التي أخذت تصطك:

- إنقلع يا هذا... إنقلع من هنا.

قلت بسرعة... ولكن ببرود:

- لا... لن أنقلع... حتى ينشلع ذلك الوتد المزروع هناك.

قبض على رجلي بقوة يروم اسقاطي الى جانبه، وإذ عجز صرخ بغضب:

- اغرب عن وجهي... اغرب عن وجهي.

اطلقت ضحكة، بعدما حررت رجلي من قبضته؟

- وجهك... أين وجهك؟ وجهك هو الغارب عنك... وعني... في التراب.

إنفعل كثيراً... وأخذ يرفس ويضرب الأرض بقدميه وقبضته... فأثار غباراً

كشيفاً، ثم تناول حفنة تراب ورماني بها... إلاّ انني ادرت ظهري، في الوقت المناسب، ورحت ابتعد عنه.

قلت في نفسي، سيشي بي... بعدما عجز عن إلحاق الأذى بي... سيشي بي بكل تأكيد، عند من هو أقدر على ماعجز عنه هو، من الخير لي... أن أغادر هذا المكان... ولكن فضولي كان اقوى من الحرص على سلامتي... فاكتفيت بتغيير مكاني... بالقفز فوق الجذوع البشرية الراقدة... متنقلاً بينها. حريصاً، بفعل الخوف، ان لاأدوس على أيّ منها، أو حتى أمسّه.

أمسكت يد بقدمي اليسرى... فجأة، بقوة. كدت أسقط على وجهي. ولكنني... توازنت بسرعة، متفادياً السقوط، وإلتفتُّ، فإذا بفتاة شابة، على قدر كبير من الجاذبية، يتراءى لي جسدها اللدن البضّ، من خلال العباءة... الشفافة السوداء... بلون وردي مشرّب ببياض حليبي. جرتني نحوها بعنف وراحت تخاطبني هامسة، بنبرة ذات جرس خاص... حلو... تزيده بحة في صوتها حلاوة وخصوصية... وتسبغ عليه... وقعاً جميلاً... في نفسي:

- ماذا فعلت... ماذا فعلت؟

ولكي أزيد من استمتاعي بهذا الصوت ونبرته اللذيذة... أتساءل متصنعاً... الدهشة... ومتجاهلاً... ما فعلت:

- وما الذي فعلت؟

أجابت بسرعة:

- ألا تدري ماذا فعلت...؟ أنت تحفر قبرك... باظلافك؟

- أظلافي؟

صرخت بأنفعال... مستهجناً ومستنكراً.

- أظلافك... مخالبك حوافرك... أنت....

- أرجوك... أنا...

- أرقد... يا هذا... أرقد... كما الكل راقد...

جرتني من ذيل سروالي... بقوة... ولكني لم اطعها:

- لماذا لايرقد... هو؟

وأشرت الى الرجل الوتد المنتصب...

- وما شأنك به...؟ لماذا تقارن نفسك به...؟

- لا شيء...

قاطعتني... صارخة بي وهي تجرني... بكلتا يديها:

- أرقد... أرقد... والا مزقوك ارباً... ارباً...

سقطت على وجهي... رغماً عني...

- آه...

تساءلت برقة:

- اوجعتك؟

- أنت جلادة.

- جذابة؟

- قلت جلادة...

واضفت إذ ابصرت ثغرها ينفرج عن ابتسامه:

- أو... أو... لنقل... جلادة... وجذابة... جلادة جذابة...

- شكراً... ماذا بك...؟

- عيناي... امتلأتا بالرمل.

- امسحهما... خذ طرف ثوبي... وامسحهما.

لم أصدق ماسمعت، فقد كان عرضاً أكثر نبلاً مما توقعت. سحبت... عباءتها الى اعلى... كاشفاً عن مساحة من لحم فخذها البض المكتنز، متعمداً فتاججت في داخلي نار... أنستني آلام عيني ورمالها... فشرعت اقترب منها زحفاً... لاغياً الهواء بيننا. ملتصقاً بها تماماً... و... إنزلقت من تحتي بسرعة فائقة مثل سمكة على حافة نهر... وهي تقول بإمتعاض مصطنع وإغراء خفي:

- ماذا تراك فاعلاً يا هذا؟

لا أدري بماذا أجبت، ولكنني أدري جيداً أنني زحفت نحوها، برغبة... متأججة... هذه المرة، وبقصد وتصميم... أن أتسلق الربوة ثانية... وأن أعيد الكرة... وأعيد... فالحرب هكذا... كرّ وكرّ وثم كرّ. كما هي الحياة ايضاً...

والجسور واللحوح... من يفوز، في النهاية باللذات، دفعتني عنها، بطريقة كأنها... تجذبني اليها...

- حذار... يا هذا... حذار.

قلت بأصرار، لا معنى له:

- أنت حلوة.

وسرعان ما إكتشفت أن ما قلته شيء لامعنى له، هو الآخر. وفي محاولة لإكساء كلامي، معنى ما، إلتصقت بها... صرخت بي:

- أقلع عن محاولا تك المراهقية المجنونة... وإلاّ تركتهم يفترسونك.

وابتعدت عني دافنة وجهها النوراني المورّد في التراب الأغبر... فلاحقتها فارشاً لها كفّي تحت وجهها.

- حرام... والله... حرام ماتفعلينه بنفسك... ذرات التاب الخشنة تخدش بشرتك الرقيقة.

سرت أنفاسها الحارة في باطن كفي... تكويها فتشعل في عروقي نشوة عارمة... تحرق كل مخاوفي وترددي... فأتوسل اليها... آمراً:

- انقلبي على ظهرك...

- لا... لا... ما أنت؟ ما أنت؟ آه...

- سوف تخنقني. التراب يملأ فاك...

وتقفز كفي الى الدنيا المتكورة:

- كفى... كفى... أنت رجل فاسد.

تراجعت نبرة الغضب المصطنع في صوتها... وإحتدمت في جسدي الرعدة إذ راحت أناملي المرتعشة تغوص في لذات الدنيا التي تقبض عليها كفي... باستماتة... فيهتز كل كياني ويرتجف صوتي:

- آ آ آ... أنا؟

- وأنانيّ... ايضاً...

فأطرد الهواء الدخيل فيما بيننا... ثانية... وألتصق بها:

- قولي عني ما تشاءين... فأنا منذ اللحظة... عبدك... وأنا...

- المدينة في غمّ عظيم... وأنت لاتفكر إلا بنفسك ولا تبحث إلاّ عن ملذاتك.

- ومن في المدينة كلها... أجدر مني بـ...

- ومغرور أيضاً. مغرور جداً.

- بل ضعيف... ضعيف إزاء نفسي ورغباتها... فساعديني... أرجوك...

- مستحيل... مستحيل.

- ولماذا مستحيل... ثم ما هو المستحيل... لامستحيل أمام...

- لابدَّ أن تنزع المدينة عن نفسها الحداد... أولاً...

- لتذهب المدينة الى الجحيم... يكفيني أن تنزعي أنت عنك الحداد... أعني هذه العباءة التي...

- مجنون... أنت قطعاً مجنون... لايجدي الحديث معك...

رفستني بركبتها في خاصرتي فاطلقت صرخة ألم... بينما أطلقت هي صرخة مبتورة... وإبتعدت عني زاحفة.

أقلعت عن محاولاتي، لم ألاحقها، قبعت في مكاني... أفرك بطني... ريثما يسكت الألم الذي أثارته ضربتها القوية. وخوفاً من أن تفلت مني... نهائياً وتضيع بين الحشد الراقد، حرصت أن لاأدعها تغيب عن عيني. وبينما... اتعقبها بنظراتي، وهي تتسلل زحفاً بين الأجساد الممدودة، ابصرت الرجل الوتد... لايزال وتداً منتصباً في مكانه. والآخرون جميعاً في رقاد... عدا ثلاث رؤوس قد إرتفعت كرؤوس ثلاث أفاعٍ تبحث عن فريسة، تصنع في حركاتها نصف دوائر متتابعة، عادت الفتاة التي حسبتها سوف تضيع مني... من تلقاء نفسها... تحتكّ بي... وتتحدث اليّ ووجهها في التراب... بهمس مسوّر بالسرية والخوف:

- إنهم... يبحثون عنك.

- عني؟

- لو ظفروا بك... لقتلوك.

- لاأعرف أحداً هنا... لم أسيء الى أحد...

- بل أسأت. أسأت الى الجميع...

- كيف...؟ أنا...

- من الخير لك... أن تختفي... فوراً...
- وأنت؟
- ماذا؟
- أخشى أن ينقضوا عليك... ويفتكوا بك، في غيابي.
- لاتحفل بي... أنقذ نفسك.
- لايمكن... مستحيل... تعالي... معي.
- لاتربط مصيرك المجهول... بمصيري المعلوم.
- المعلوم أهون من المجهول. سأبقى معك، لن أفارقك مهما حدث.
- أسمع يا...

ولكنها قطعت كلامها فجأة. إذ بدأ الرجل الوتد يصرخ ويزعق. ويهتز... في مكانه... مثل غصن تعبث به الريح، تساءلت ببراءة:

- لماذا يولول...؟ ما الذي حدث؟ أمات له أحد؟
- هش... هش... انه يتلو صلواته.
- صلواته؟
- هش... هش...

رفع الرجل الوتد كلتا يديه الى السماء. وراحت الرياح تلعب بعباءته بينما راح هو يلعب بنبرات صوته، التي أخذت تعلو وتهبط... وتهبط وتعلو من جديد. وبين هبوطها وعلوّها تتوضح كلمات وتضيع كلمات، تصلني عبارات وجمل... وتتموّه عبارات وجمل... فلا أفهم منها شيئاً:

- يا رب... يا ربنا القادر القدير... يا رب الأرباب الأعظم، هذه حياتنا جميعاً... حياة قوم برمته... قد وضعتها بين يديك. وتحت رحمتك التي... (ضاعت مني الجملة التي تلتها ولم أستطع إلتقاطها) ان المدينة كلها. بكل مخلوقاتها وكائناتها الجامدة قبل الحية والميتة قبل العائشة، تتضرع اليك... وأنت يا (عبارة أخرى ضاعت) وجّه أمرك الى عبدك الحيّ الميّت... بصوتك القويّ المجلجل المتوغل في أعمق الاعماق. وقل له إنهض أيّها الميّت... انهض... فما أنت بميّت... (عبارة أخرى... لم أفهمها جيداً).

وبعدها... سكت الوتد، بطريقة. دراماتيكية غريبة، ربما لكي يعطي كلامه وقعاً خاصاً... مقصوداً. في نفس إلهه الذي يخاطبه. أو لكي يمنح إلهه وقتاً إضافياً... يراجع فيه الربّ نفسه ويشاور عقله، فيما إذا كان يتوجب عليه أن يلبي طلبه أو يرفضه.

أنا، في قرارة نفسي، أتمنى أن يتحقق الأمر الثاني، إذ ما الفائدة في بعث الحياة في جسد ميت... أو عاطل، عاجز عن أن ينفع حتى نفسه... وبينما أنا منكفئ الى داخل نفسي أحاورها... واقلّب الأمور بيني وبينها... غافلاً، أو شبه غافل، عما يجري حولي، فوجئت بأني قد بتُّ محاصراً من قبل الثلاثة الذين كانوا يرتعونني بعيون تقدح شرراً... تحملها رؤوس كرؤوس الافاعي.

ضربني أحدهم، بعنف، على رأسي، ضربني الآخر، على يميني بيساره. بينما اختار الثالث طرفي الأيسر لينهال عليه بيمناه. داخلني شعور بأنني هالك لامحالة... حاولت أن أنهض وأطلق ساقي للريح، بالرغم من كل الآلام التي غزتني. ولكن ذراعي الرجلين إستحالا... طوقاً... سقفاً حديدياً تستحيل زحزحته... فقبعت في مكاني مستسلماً لمصيري الذي كان مجهولاً، حتى هذه اللحظة، وقد بات الآن... معلوماً الى حد كبير، منكمشاً على نفسي بلا حول ولا قوة... كفأر في مصيدة، تتربص به ثلاث قطط مفترسة، إلاّ أن صرخة قوية انطلقت، من مكان قريب، انعشت في داخلي أملاً بالنجاة:

- دعوه.

رفعت راسي فاذا الفتاة، فتاتي، على مقربة مني، لايفصلني عنها سوى الرجل الممدود الى جانبي، الذي صرخ هو الآخر، بدوره:

- لابد ان ينال العقاب.
- العقاب؟ لماذا العقاب؟ ماذا فعلت؟ ماذا اقترفت.
- ألا تدري، ماذا اقترفت؟
- أدري اني لم اقترف شيئاً... لم...
- بل اقترفت... وما زلت تقترف... حتى اللحظة.

قالها بنبرة تأكيدية غريبة، أيقنت معها، إن العقاب وبأبشع صوره واقع عليّ لامحالة... ولكن الفتاة... وعيونها المحدقة بي... لاتزال تنعش فيّ الأمل...